كوميديا

العالم السفلي

عبد الكريم الساعدي

obeikandl.com

اسم الكتاب: كوميديا العالم السفلي

المـــــؤلف: عبد الكريم الساعدي

الناشـــــر: بورصة الكتب للنشر والتوزيع

٢٥ شارع شريف- القاهرة

Email: adel.metwaly69@yahoo.com
borsatelkotob@gmail.com

٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩ -٠١٠٠١٨٨٩٣٦٣

رقم الإيداع :٢٠١٦/٤٤٩٥

الترقيم الدولي:٣ - ٠٣٠-٧٩٧-٩٧٧-٩٧٨

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية- دار الكتب المصرية

الساعدي، عبد الكريم.

كوميديا العالم السفلي:مجموعة قصصية/ عبد الكريم الساعدي.- القاهرة: بورصة الكتب للنشر والتوزيع، ٢٠١٥ .

٨٠ص؛ ٢٠سم.

تدمك: ٣-٠٣٠-٧٩٧-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية.

أ- العنوان.

٨١٣

---

obeikandl.com

كوميديا العالم السفلي

عبد الكريم الساعدي

بورصة الكتب

الطَّبعة الأولى ٢٠١٦

obeikandl.com

obeikandl.com

إهداء

إلى: أنا

بي وجعٌ من سنين، يمتدّ جسراً بين صرختي الأولى، التائهة وسط الهلاهل، وبين آخر المحطات، أحمله كحدبة البعير، يلاصقني ولا أراه. . . وحدي أسير به، والجميع يسير بي.

obeikandl.com

obeikandl.com

1

ولادة

كنت وحدي حين هبطت من ذلك الشاهق، أراوغ غيبتي وأنتظر، أسكن نفسي، ألزم صمتي، أرتلّ ما تيسّر لي من خفقة القلب، قطيع من الظلمة يخبط ناظري، أنكفئ إلى الخلف، أدور حول نفسي، تنبسط كفّاي، تتسلّل قدماي من جوفي، تضرب سطح العتمة فرحة، ذراعاي يخال لي أنّهما جناحان، أحلّق بهما في فضاء من سائل لزج، تهدهدني مويجاته، أتأرجح فرحاً في فراغ شاسع، يمتدّ ما شاء لي، أتبعثر كما قطرات الندى، ألج بحوراً وفضاءات، أغفو على وريقة وردة، يلملمني نبض له كنه النغم، أنقبض، أعود إلى نسغي الدافئ، يراودني النعاس، أتشبّث بأضلع تحيط بكوني الفسيح، أشهق برائحة التفاح، أنام على سرير من موج ساكن. الساعة المعلّقة على الضلع الأول متوقفة عند الثانية عشرة بعد منتصف الظلمة، تتوهج بين الحين والآخر أقمار زاهرة، تنتصب أمامي تسعة أبواب، خلفها نافذة صغيرة، يندلق منها ضوء وامض، مذ رأيته

أصابتني رعشات من القلق، أغمض عينيّ، يرتبك رقادي، تتفتّح أذناي على أنين ريح عاتية، تحمل غيمة ملبّدة بالسواد، موبوءة بالرماد، تجوب جهات عوالمي الجميلة، تهرول خلفي، أتعلّق بأضلع كوني، تقتلعني، أسقط في الفراغ، أتدحرج مزدحماً بالخوف، تصهل في جوفي صرخة، أكتمها إلى حين، كقابض على جمرة، لأول مرة أحسّ بضيق المكان. أطلق سراح رحلتي، رحلة ترتجف بالغموض، الباب الأول يمدّ لي إغراءً، كان مواراباً، أقضم طرف قصبتي الممتدّة من سرّة وجودي حتى النافذة الوامضة بالضوء، أمتطيها مهاجراً، يرافقني سرب من الفراشات، يؤانسني، يمحو وحشتي:

– لا عليك، كن مطمئناً، سنرافقك حتى النافذة.

يُغلَق الباب خلفي، أحسّ أنّي أفقد بعض الدفء، أضلاع كوني تضيق، أفزّ على صوتٍ هامس،

" افتح كفيك".

يحدّق ملياً في خطوط كفّي، يزيح ستاراً من عتمة، يشير إلى سرب الفراشات أن تتبعه حتى الباب الثاني، أملأ صدري بعبق الحنين، وأقضم شيئاً من قصبتي، أحلّق خلف الصوت، أرتجي ملاذاً لغربتي، ذاكرتي تفقد توهجها، تخلع ثوبها شيئاً فشيئاً، وكلّما ولجت باباً وخرجت من باب آخر، أراني عارياً، تلفّني موجة برد، قصبتي تكاد تتلاشى، لم يبقَ منها سوى قضمة واحدة، الفضاء الفسيح يضيق، ينطوي في حنايا ظلمة يدقّ البرق بابها، وما إن ولجت الباب التاسع حتى غادرني سرب الفراشات مودعاً، فجأة يهاجمني الضوء، يصفعني العمى، أغمض عينيّ، يحاصرني الدمع، تهصرني أضلاع كوني، أتشرنق في حيز يواسي ظمأ الروح لنسمة هواء،

أستوحش مرافئ تلّوح لي ببيارقها، أمدّ رأسي، ألمح ظلّ امرأة، شفتاها ترفلان برفيف البسملة، أسحب رأسي، ألتفّ حول نفسي، تقترب من النافذة، تفتح درفتيها، أحبس أنفاسي، تمسك برأسي، أراوغها، أحاول الانفلات من قبضتها، أخوض في موج، تشدّني رغبة للغرق فيه، يبلّلني بقطرات حمراء، عبثاً أحاول الهرب، أقضم ما تبقّى من قصبتي، أحوّل بصري نحو مملكتي، أتوسل كوني، أتعثّر بين الظلمات وهدب السرة، دثار من أطياف الذر يلتفّ حولي، يوقّع عهداً بنفحة بيضاء، يمسح غبار العتمة عن وجهي، أتلو بنوده؛ فأتوهج بشهقة تكويني. عقارب الساعة تتلاشى في قوس من نور، ينكشف الستر بيني وبين أسفار تتوسّد الأفق، اليدان تقبضان على كتفيّ، تتلمظان فرحاً، تخرجاني من العتمة إلى التيه، ظلّي يتبعني، أطلق صرختي في المدى، لكنّها تضيع وسط موجةٍ من هلاهل ملأت الفضاء.

obeikandl.com

2

كوميديا
العالم السفلي

ذات يوم، بل كلّ يوم، أقف على هامش المكان، مسكوناً بالقلق، يلازمني غراب أسود، يلتصق بي كالظلّ، يرسمني غريباً كما يشاء، يرشدني إلى مدافن سوءات التأريخ، استمع إلى خفقة الموت، أرى أشلاء القتلى تطوف حول ظلّ لوحاته، تنزّ من بين ثناياها قوافل من قطيع الأحلام، يشيّعها عويل من نساء محنّات بالوحل، مكحّلات بالدمع، شيخ يبرق الدمع في عينيه، يبحث عن كسرة خبز، جنائز لجثث مجهولة، مستغرباً لما يجري، أتساءلُ، لِمَ يحدث كلّ ذلك؟ حتى رأيت الأشياء تعدو قبلي وبعدي، وأنا أبحث عن رائحة وجودي التي لا أعرف لها أثراً في أنف الليالي، تلك الرائحة الممزوجة بالعبث والضياع، أظنّ أنّها تعرّقت؛

فسالت على جدران محراب ريشته وألوانه، محراب خبّأ فيه ملامح الذكريات، وكلّ الطقوس الممنوعة، حين تلج مرسمه المعتّق بالغبار، والمسوّر بخيوط العناكب، عليك أن تعيش الخطر؛ لا تستغرب ذلك، اقرأ ما خطّه (نيتشه) على عتبة المرسم:

"إذا أردت أن تجني من الوجود أسمى ما فيه فعش في خطر"

أرتدي معطف كوابيسه، أنفض رماد ذاكرته، أعانق شبح رجل أتعبته الدروب، انسلّ بهدوء شديد من ركن صغير، تسكنه الفوضى، يعانق صراخه العنيف، يرتّل سيرة أمسه:

- كنت أعيش هنا لمّا حُظرت الأحلام، أمارس ترميم شيبي، لعلّي أرتطم بقلب مترع بالحنين، أو أرى ضوءاً ولو من ثقب صغير، مدرك تماماً أنّه يحاصرني بعيونه الذئبية، ينفث دخان سيكاره الكوبي في وجهي، يخنقني بضحكته العاهرة، يشرب قهوته كلّ حين على مشارف فزعي، وحتى أهرب من عيونه التي نجحت في محاصرتي في دوائره الضيقة؛ تراني أرقص على الطريقة المولوية، أدور حول نفسي دورات سريعة كما الخذروف، وحين أقف لا أجد نفسي، في الصباح أخرج من لوحتي عارياً، قاضماً شفاه اللون، مرتدياً حلماً جديداً، كانت حقيقتي حلماً لا غير، تلك طقوسي - يا صاحبي- في زمن التيه، كأس من الخمر تكفي لسكري، ولك الصحو لتحلّق في عوالم مخلوقاتي الراقدة حزناً في سجونها المؤطّرة بالفزع، ستسمع أنينها المعتّق، تفضل معي، كلّ هذه اللوحات أردتها أن تكون ملحمة على غرار الكوميديا الإلهية، لكنّها هنا، على الأرض، إنّها كوميديا العالم المنسي؛ فنحن نملك من العذاب وأهوال الجحيم ما لا يتصوره دانتي في جحيمه، لم يكن أمامي سوى تجسيد صراع تلك الآلهة التي نزلت على كوكبنا؛

لتخطّ لنا سفر العبودية، انظرْ جيداً إلى الجدار، عُلّقت فوقه لوحات غير مؤطّرة، رسمت بلا ألوان، لا شيء غير الهواء والماء، وإله راعٍ لشؤون الأرض، برفقته زوجة جميلة وكهنة معبده ووزير حاذق وحاشية تمجّده؛ في البدء كان صراعاً مريراً يحمل بذرة الكون، النماء والخصوبة؛ فكانت مدينة نفّر وأريدو وأوروك وتلك معابدهم في العالم السفلي، إلّا أنّ شهواتهم، ملذاتهم، جعلتني أخطّ سفر الفجيعة.

لوحات تتدفق أسى، ملأى بالمواجع، صور موشّاة بلون الأرض، لعشّاق أضناهم البين، طائر مكسور الجناح، نساء عاريات، نايات حزينة تنشد أنينها...

تستوقفني إحدى لوحاته، معلّقة على الجدار الأول، أرض جرداء، محاطة بخراب شاسع، يملأ فضاءها نواح وغناء امرأة جميلة، سألته مدهوشاً:

– من هذه؟

– إنّها (إينانا) تبكي زوجها الملك (ديموزي)، المنفي إلى العالم السفلي بدلاً منها.انظر إلى هذه اللوحة (المضاجعة والعقاب)، البستاني شوكليتودا يضاجع ملكة السماء الحزينة قرب شجرة الـ(سربتو) وهي نائمة ولم تشعر من شدة تعبها، فرّ شوكليتودا إلى مكان مجهول؛ فدفعنا ثمن تلك الخطيئة، صبت علينا أنواع العذاب، قتل ولعنات وحرق مزارعنا، حتى الحيوانات لم تسلم من الموت، لم يكتف مجمع الآلهة بذلك؛ قرر أن يفنى البشر ويذهبوا إلى الجحيم، لا لشيء إلا لأنّ البستاني منّا– نحن البشر– وتلك السيدة من صنف الآلهة؛ منذ ذلك اليوم ونحن نعتلي سفينة مثقوبة، نبحث عن مرفأ؛ أما هذه اللوحات المعلّقة على الجدار الثاني، ليست لي، إنّها سفر

صديقٍ سومري، تعرّفت عليه في ظلّ الأمس المنخور أسفاً، في ظلّ الحرب، التقيته هناك بعد حين من الوجع، كنّا نتعكز على حشرجة الموت قرب أشجار البلوط الدامعة الملقاة على ظهر جبل كونت، كلّ ذلك الموت، الخراب، الفزع، قيامات الليل والنهار، لم تجدِ نفعاً،كنّا نرتكب غفلة في عزّ الخريف المرعب، كلّ تلك السنين كانت فصلاً واحداً، لم تترك لنا غير أن نحمل جنوننا على كتف العبث، نختبّئ في صرة اللذائذ، في جرحٍ يهتف بالأرق والألم الدائم؛ لنمضي صوب اللاشيء، غير مبالين بعصفٍ يشتهي أرواحنا، يصفعنا الأين، تصفعنا الليالي ببردها،بثلجها؛ بيد أنّ القطاف لم يبلغنا، خرجنا من الجحيم كما الهياكل العظمية، نضحك ملئ أشداقنا على تماثيل برونزية لآلهة عفنة، تسوّر ساحات المدن، يدور الناس حولها سكارى، يطمرهم العمى، ينازعنا ذات الخريف ما تبقّى من العمر، ينسجنا الطريق خطى تائهة في وطنٍ يتكئ على موتاه، فما كان منّه إلّا أن يرسم حلماً ويمضي وحيداً إلى عوالم مجهولة؛ ما يعجبني في لوحاته (التكوين) ورسم التكتلات البشرية والأعشاب والنوارس،في تنويعات غاية في التميز، كلّ عنصر له شخصيته المتفردة التي تعزف جملة لونية وتعبيرية، انظر إلى هذه اللوحة، رجل أصلع، طاعن بالسن، يخرج من بين غيوم رمادية، يلّفه ضباب كثيف، يحمل عصاً، لم يتوكأ عليها، يلوح بها في الفراغ، وهذه زهرة برية نمت في بسطال جندي، وتلك خوذة مثقوبة، علاها الصدأ، وهذا شاعر يحن إلى ضفة نهر، وهذه امرأة من شنكَال، لها نكهة الصباح، عُلّقت من ضفائرها، وتلك شجرة عارية، وقف على أحد أغصانها اليابسة غراب أبيض، أبتسمُ:

– لم أرَ من قبل غراباً أبيض.

– ستراه يوماً ما.

– إنّها عوالم غريبة.

– لم تكن غريبة، لكنّها مكتنزة بالأسرار.

_ وهذه، ما اسمها؟

– الوداع الأبدي، هذا شبح أنكيدو ملوحاً لصديقه جلجامش لحظة نزوله إلى العالم السفلي.

يرسو مركبي تحت سماء لوحة غريبة لمدينة خربة، أحدّق فيها ملياً، أغيب في ثنايا زمنها، أناملي تمتدّ، تمسح الغبار عن وجه امرأة لاطمة خدّها، شاقة ثوبها، يهمس في أذني:

– إنّها ننكال.

– وما ننكال؟

– زوجة إله القمر، تندب حظها العاثر لحظة سقوط أور آخر معاقل سومر.

ومنذ سقوط المدينة ورحيل صاحبي،تراني أمضي حزيناً، ملتحفاً وحشتي، هارباً من حرب لا ناقة لي فيها ولا جمل، سنين عجاف وأنا مسجون بين هذه الجدران، يرافقني ظلّ امرأة، وسط الأصباغ والفرشاة وقلم الرصاص ولون الطين، أرتّب ضجري، أعاقر قلقي، أشرب خمرتي، أغيب في حلم؛ لم يكن هناك كوكب، كنت أنا الذي يدور حول نفسه، أمتطي رغبات شاحبة، تائهاً وسط غيوم داكنة، لم يكن لي حذاء لأبحث عن طريق، كلّ ما أعرفه إنّي على قيد الحياة، أحتفي بأحلام العصافير، أستنشق دخان التبغ بلهفة شديدة، ألتهم سطور الكتب الطاعنة بالصراخ،

ألهو بمعصم الكأس انتشاء، لا يهمني أن أتعثّر بجثة متفسخة أو عبوة ناسفة، كنت غارقاً بالجنون، ما دمت أرسم فأنا موجود.

– ألا تعد ما تفعله هراءً؟

– هذا رماد ذاكرتي، وآثار وجودي.

– أراك مجنوناً.

– ربما، فأنا ما زلت مسكوناً بليلي الطويل، أمضغ حلكته، أركض من الصباح حتى الفجر في ظلّ أصنام من شمع، ترتدي ثياب الخنوع.

أتأمل آخر لوحاته، امرأة في ريعان الشيخوخة، تلتحف النحول لكنّها مبتسمة، ساخرة من الذين رحلوا، تطلّ من نافذة مفتوحة، تمدّ يديها إلى حبات المطر...

أحدّق في رماد ذاكرته، أستلّ رفاته من بين ركام لوحاته المحنّطة بالعزاء، كانت ترانيم حارقة، نثرتها الريح على ضفاف الوجع، لوحةً رسمتها يد الأقدار، ذات لون أحادي، معتّقة بالجحيم، باصقة في وجه آلهة العالم المنسي، تهذي بتفاصيل إعدامه:

– ذات نهار موحش، مفعم بالخوف، مشعّ بالخراب، عُلّقت على عمود الإنارة بتهمة الزندقة والهروب من الحرب، وقبل أن ألطّخ بدمي، وأفقد حواسي، كانت عينا أبي ترنوان إليّ عن بعد، تستظلّان بالدعاء، يبلّلهما صراخ مكتوم، أحدّق في الحضور، وجوه بلا ملامح، رصاصات تخترق جبهتي، لم أستطع عدّها؛ كنت مشغولاً بمعانقة كوني الجديد.

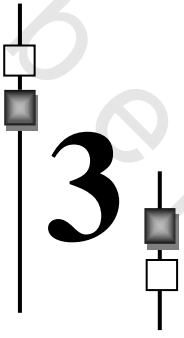

سروال داخلي

الوقت عصر، أقتفي خطوات الأمس فرحاً، أتبع أثري، أتوق إلى ملامح تهلّل باللقاء اشتياقاً، اجتاز محطات، ترجلتْ عندها أسماء وطقوس، ألملم ذاكراتي،

" كم مرّة التقينا في ذات المكان؟ "

أنا أقف تحت الجانب الأيسر لنصب الحرية، بموازاة الثور الهائج مثل كلّ مرّة، سيأتون على الموعد سوى سعدي، سيتأخر قليلاً، كنّا خمسة جنود، نلتقي في إجازتنا الدورية، ننفث رعب الخنادق، ننسى الحرب ونمضي، لم نفكر بالموت، محنّطين بآمال مؤجّلة، بنا شغف للمقاهي، ورائحة النهر، نعشق الليل وأغانيه، نسكب كلماتنا شعراً في ثنايا كأس

صافية، ننثر ما تبقّى من أحلامٍ قصصَ غرام، لم يكن بوسعنا غير أن نحيا. بعد سنوات سنلتقي في ذاتِ المكان، لكنّ الساعة التي توقفت عند منتصف الخراب مبتلّة بهتاف المارة، الأزقّة التي كانت تعانق خطانا مهجورة، مظلمة، تحتسي عزلتها، شناشيل منازلها ترتجّ، يتّكئ بعضها فوق بعض، تنعق فيها الغربان، أعبر سيطرات الجند، والأسلاك الشائكة، وبصعوبة بالغة وسط موجات من البشر استطعت الاقتراب من ساحة الطيران، أقف أمام جدارية الثورة، جدارية(فائق حسن) كصوفي يلفّه الغياب، ألوان جذّابة، مبهجة ومتناسقة بتفرد، متناغمة بشكل فني مموسق، عيناي تتسلقان شرفة طيفه النابضة بإطلالة الغبش، أتيه وسط آلاف قطع السيراميك الصغيرة الملوّنة، أرمق هتاف ولافتات المتظاهرين، أبتسم، يزوغ البصر، المتظاهرون يدخلون الجدارية، يحملون على أكفّهم حمامات ناصعة البياض، امرأة شابة تلج وسط الجدارية، ترفع يديها، تطيّر حمامات فائق نحو فضاء رحب، أفرك عيني، أفتحهما، أحدّق في المارة، في الجدارية، توحّد تشكيلي عجيب، نساء ترتدي ثياباً ملوّنة، عامل، مزارع، حتى الجندي الذي فتّش حقائبنا قبل قليل، يدخل مع الداخلين في رقصةٍ جماليةٍ مبهرة؛ ثمة طفل أسفل اللوحة ينظر صوب الجهة الأخرى، وعلى مقربة منه قفص مفتوح، لا حمام فيه، يشير إلى الجانب الآخر من حديقة الأمّة، الذي حدّه جواد سليم بنصبه السامق،

" هناك الملتقى، حيث نصب الحرية..."

يخرج المتظاهرون من الجدارية واحداً تلو الآخر، أسير خلفهم لاهثاً، ألحق بهم، أدخل حديقة الأمّة، كانت من قبل مملوءة بالكوابيس والخوف، أخشى أن ألتفت إليها، أبناؤها ينامون ليلاً على طرف الخدر، شحاذون،

سكارى، مدمنون، مشردون...، ينشدون نافلة العبث والضياع، يلتحفون ظلّ تمثال (الأمومة) لخالد الرحال، أمٌّ تطلّ عليهم من نافذة الوجع، تمدّ أهداب الحنين، تحوكها أرجوحة، تهزهزهم على نغم موّال قديم حتّى يناموا، بعد منتصف الليل لن ترى غير أجساد ميتة في أكمة عشب ذابل. موجة من المتظاهرين تدفعني إلى الأمام، ألتفت إلى التمثال، لم أجده في مكانه. الهتاف يجوب الجهات، يستعرّ أمام أيقونة الحرية، أيدي الرفاق تلوّح لي عن بعد، ثمة عصا تجذف في الفراغ، إنّها عصا سعدي، غصن من شجرة البلوط، لا زال يحتفظ به، لقد أجاد الحضور مبكراً هذه المرّة، أصعد السلالم مشبعاً بالشوق، يهرعون إليّ، يحلّقون حولي، نتصافح، نتعانق،

– لقد تأخرتَ.

– الزحام شديد. وأنت يا سعدي، يبدو أنّك حضرت مبكراُ.

– نعم، الأمر مختلف.

– وأين العكاز؟

– لا أحتاجه اليوم، هذه عصاي، أتوكأ عليها، وأضرب بها أنف الناقة.

ضحكنا فرحين في ظلّ أحلام مؤجلة، أحلام طال انتظارها. كنّا خارجين من صلب الجراح، لكنّا مفعمون بالآمال والحبور، نشاكس العتمة؛ لنمنح أطفالنا بسمة، نصنع لهم لعباً من نرجس وياسمين، لتزهر الأزقة مواويل فرح، نعلّق على حيطانها مصابيح الفصول. وفي غفلة منّا نُصبت خيمة عند عنق الجسر، يبدو أنّ الجسر أتّخذ ملامح المنطقة المحايدة، الخيمة تتربص بنا، ترتدي قناع التحاور، تريد أن تختم على فوهة الغضب:

– ماذا يريدون؟

- أنْ نتفاوض.

- علامَ ...؟

- لا أدري، أراك قلقاً؟

- لا أخفيك سرّاً، هاجس أصابني، أنّنا سنلتقط سيفي تحت نصب الحرية ونرحل. في المسافة ما بين النصب والخيمة وحده سعدي كان غارقاً في موجة دهشة، يرنو إلى المفاوض بقلق بالغ، يقطب حاجبيه، عيناه تتسعان، يزمّ شفتيه، يهزّ عصاه، يجلد طرفه الصناعي أكثر من مرّة، وكأنه يتوسل اللحظة أن تجود بالذكرى، يحلّق بعيداً عنّا، يرتعد:

- ما بك؟

- أخشى أن يكون ابن العاص.

- أفصح.

- انظروا جيداً إلى باب الخيمة، ذلك المفاوض الرابض خلف المنضدة، إنّه هو، الضابط السيئ السمعة.

كان الوقت شتاء، يلفّ المكان ضباب ودخان كثيف، الجهات تحاصرنا، أزيز الرصاص وقنابر الهاون لم تتح لنا أن نرفع رؤوسنا، توسدنا تراب الخندق الملتوي كما الأفعى، الممتدّ من رأس الجبل حتى الوادي، سعدي يئن من أثر جرح بالغ أسفل ركبته، ينزف دمه، يتوجع، يصرخ، يهذي، يغيب عن الوعي، كانت الفرصة مناسبة لأن ننسحب ونسعفه، الضابط السيئ السمعة يأبى أن نخلي صاحبنا إلى الوادي. العدو يقترب، صرنا في مرمى البصر، الأبواب موصدة، لا شيء غير الموت يجوس المدى، يمخر عباب الرعب؛ فيرسم لنا قبوراً بلا شاهد، كنّا نستعد لنوقد السفح

بما تبقّى من رصاصات، بيد أنّ الضابط وقع تحت نوبة ارتجاف، لملم أطراف مخالبه، نهشنا بنظرة توسّل، ألّا نطلق رصاصة واحدة:

– لا أريد أن أموت.

عيناه تجوبان المكان، تمسّان بياض الثلج، يفتّش عن شيء ما، يحدّق بنا منكسراً، مرعوباً، يرتبك، ينزع بنطاله، يخلع سرواله الداخلي على عجل، كان السروال أبيض، ملوثاً ببقع صفراء، يخرج من الشقّ ملوحاً بعورته...

ما بين النصب والخيمة يتّكئ صاحبنا على ظلّ الجرح، يقف أمام المتظاهرين، يلّوح بغصن البلوط، يتقدم الصفوف، ننشد أغنيتنا القديمة،

" نحن لا نجيد الغرق، نحن نجيد شيئاً واحداً فقط، ندور في مدار الحبّ دونما خوف، دونما طوق، ستزهر الجراح ندى ويستفيق الورد "

الضابط يمعن النظر، يحدّق في رجل مرقال يتقدم الحشود، متعكّز على عصاه، يلتفت إلى مرافقيه، يبتسم هازئاً:

– أنا سعيد بمقابلتكم، ماذا تريدون؟

– كش ملك.

يتشاغل بالنظر إلى أوراق أمامه، وكأنّه لم يسمع شيئاً، يعاود التحدّيق في الرجل المرقال بحدّة:

– خذْ هذه الورقة، دوّن ما تريدون.

– يبدو أنّ ملامحي لا تذكّرك بشيء ما.

– لا أفهم، من أنتم؟ وماذا تريدون؟

كان صاحبنا قدّ أعدّ الأمر قبل أن يتقدّم الصفوف، حاضراً للحظة، كشف عن ساقه، كان طرفاً صناعياً، مدّ يده في جيبه، أخرج سرواله الأبيض، قذفه في وجهه:

– خذهُ، لعلك تفهم ما أريد.

المفاوض يمسك رأسه، يطيل النظر إلى السروال، يرفع النظر ثانية، يرتدّ مذعوراً، يندهش، تلفّه الحيرة، ينكمش، يتصاغر، يخرج الصوت خجلاً، متقطّعاً:

– ألم تمت؟!

– خذْ رايتك وارحل.

الجسر ينكشف، يبتلع المفاوضَ وسرواله الداخلي، بينما عيون المتظاهرين ترنو إلى الضفة الأخرى، تنشد أحلاماً، يبدو أنّها في متناول اليد.

obeikandl.com

4

المعبر

عبرت الجسر مع العابرين، حاملاً ابنتي فوق صدري، وزوجتي تحمل صرة أسمالنا البالية، تاركين خلفنا أطلالاً وخرائب، قوافل موتى وصراخ العذارى البائسات، ألتفتُ ناحية النهر، أحدّق في ضفافه، أتوضأ بأمواجه، وقبل أن أودّع تنهداته تركت ظلال الطفولة وخفقة القلب وديعةً بين الماء والطين، كان الصمت بليغاً عند بوابة العبور، يقطعه صوت الحاج محمود، بين الحين والآخر، ناشداً مواويل الصبر:

– بزيبز*، يا بزيبز، ألا تسمعني؟ لا تحزن، سنرجع يوماً ما إليك، حينها سـأتلو سيرة الفرح باكياً، وأرقص الجوبي في الطرقات.

يطلق زفرات في الفراغ، زفرات تنبض برثاء أيام خلت، يمضي مع الحشود. كنتُ أنا والمعبر لوحة سريالية، امتزجت فيها ألوان الأنين، جوع الأطفال، ودموع أمّ ثكلى، مؤطّرة بحسرات شيخ خذلته السنين، أمسح بكفّي وجه العتمة عنها، لا شيء غير العتمة، أرنو لبيوت خربة موغلة

بالأسى، تلوّح لنا من بعيد، تفتح ذراعيها فرحة، نترجّل عن صهوة صحراء ثكلى؛ لنحطّ الرحال عند عتبة الألم، أزيح الغبار عن نافذة خشبية، أتأبّط همّي، أيام تمرّ، في هجعة لياليها تنضج الوحشة، فتراني أبكي بمرارة، أنشدُ من يشاركني بكاء الغربة.

ابنتي التي ما انفكت تسأل عن حماماتها ولعبها، لا تسمع غير صدى صمتي، أفزّ مرعوباً على أنينها، أنين يصدع القلب، عيناها لا تطرفان، جبينها يتفصد عرقاً، هالة سوداء تُرسم تحت عينيها، ينكأ روحي لهيبُ وجعها، يستبيحني القلق، زوجتي الجالسة على طرف السرير أراها مسكونة بالهواجس، يصفعني التوسل عند لحظة تماحك حيرتي، يستفزّني التساؤل:

– هل سنتركها تموت؟، اعمل شيئاً .

كانت الأبواب موصدة، تجتاحني الحاجة، فيضٌ من الدمع يسكن مقلتيّ، لا أحد يعرفني، وأنا القادم تواً من جهة قصية، مكبّل بالخوف من المجهول، مكتظّ باللوعة، لم أكن سوى نازح يرتجي بعض أمان، كلّ شيء تركته هناك، فتراني لا أملك غير حطام أحلام تتسوّر بيتاً مهجوراً، كنّا خيولاً هزيلة، تحاول جاهدة أن تنجو بنفسها، حين انزلقت المخاوف على جادة المدينة، لم أر غير قوافل الهاربين، ترشقها المآذن بوابل من صلوات المارقين، أتبع أثرها، تطرق أبواب الليل تكبيرات مخاتلة، تجوس الخطى حرائق، تخدش الحياء عند مفارق صفعةٍ قطفتْ ثمار البساتين. كانت الليالي موحشة، نتوسّد فيها العراء، وعيون الأعراب المسعورة تحدّق بالسبايا فرحة، تطارد الخطى المرتعشة بالخوف.

ما زال التوسل، التساؤل، يحدّق بي، يضطرم الأسى في محاجر مكحّلة بالسواد، أشتعل قلقاً، أشهق غيضاً،

" هل سأمدّ يدي متوسلاً عيون المارّة؟ لا، لن أفعل ذلك، ليس مثلي يعيش على سقط المتاع "

يقرع سمعه أنين طفلته، صدى التساؤل يبرق ثانية في عيني زوجته اللائذة بزاوية غرفة صارخة بالبرد:

– ما العمل؟

يتماوج دمعها، يسحقها الحنين، يؤرقه وباء الجوع، يزداد وجعاً،

" مليكتي الجميلة، المحمولة على جناح الأماني، أيّ حزن تبرق به عيناك؟ وأيّ جزع يرتدي روحك البهية؟"

يمسّ ضفيرتها، يلملم أشلاء ما تبقّى من صبره، يلوذ بالفرار، وقبل أن يحتويه الطريق، يصفعه نداء جاره:

– أبا عاتكة، لا تنسَ، عشاؤك اليوم عندي... سأنتظرك.

تُومئ لي الطرقات، لا أدري أين تنأى بي الخطى، أنشد نافلة التسكع، لعلّي أهتدي إلى ثمن الدواء. ما من أحد يبصر المسافة الممتدّة بين نبض قلبي الواهن وبين ظلّ السؤال النائم تحت رمش العين، كنت أتنفس ظلام الحيرة، أمتطي صهوة الخيبة، أعدّ خطواتي التائهة على أرصفة غير آبهة بوجودي، المارّة يحدّقون في انكساري، ألوذ بظلّ ابتسامة خجولة دون جدوى، مثخناً بالوجع، ولّما أدركني الإعياء، أحسست أنّي لا أملك قدرةً على مواصلة السير، أجلس على الرصيف، أسند ظهري إلى الحائط المجاور للمقهى، أطلق استغاثة دون وعي، (يا الله)؛ فتأخذني سِنة من نوم. يخالني أعبر الجسر، أمسك ظلال الدار، رائحة الشبّوي تلوذ بأنفي، لا

شيء واجماً أمامي، لا أدري كيف وصلتُ، هل كان الطريق يسخر منّي؟. كانت حديقتنا زاهرة بالثمر وعطر الورد، أتأمّل خضرة الأشجار، وهيبة السدرة الخضراء، الحانية على سياج الدار، عيناي تعانقان نخلة تتوسط الحديقة، ما زلت أذكر حين أتى بها والدي، عشقتها مذ كنت صغيراً، أحتمي بظلّها :

– أبي، أراك مهتمّاً بها كثيراً.

– بني، إنّها نخلة بصرية.

أطرق باب الدار،أحسّ أنّي طفل، يهوى اللعب، أطرق ثانية، أنتظر عيون أمّي تفتح لي، فأنا عطش لعناقها، أتنفّس عبقها،أرقص على وقع خطواتها، يتهادى صوتها:

– انتظر، أيّها الشقي.

صرير الباب يقرع سمعي، عيناي تطفحان بالاستغراب، اصطدم بوجهٍ ينبض بالرعب، صوته محفوف بالعواء:

– ماذا تريد.

– أين أمّي؟

يرنو إليّ بعينين حمراوين تتطاير شرراً، خلفه حشد من العيون الزائغة، تسبر أحداقي، يرتبك نبض القلب، أصفرّ خوفاً، أرتجف، سوط الرعب يجلدني، أغرق في نوبة بكاء ناشج، تمتدّ يده نحوي، تخمش أظفاره وجهي، يسيل دمي، أنفلت، ألوذ بالفرار، ترتجف الطرقات تحت خطواتي، تضيق، التفت خلفي، ذقون طويلة تطاردني، ترافقهم وجوه كالحة أعرفها، تنكت مقتاً، أدلف يمين الطريق، يبتلعني الزقاق، المدينة يلفّها صمت مطبق، يشبه صمت المقابر، ثمة موتى تتوسد التراب على جانبي الطريق، أشلاء

مبعثرة هنا وهناك، كلاب و قطط نافقة، طيور تحلّق في دخان كثيف، تغتالها رائحة البارود، الناس تهرول في طريقها إلى الجسر، تهمّ بالعبور، الجسر يمدّ عنقه، أصرخ فيهم، لا أحد يسمع صراخي، أغمض عينيّ لعلّي أجد زوجتي وصغيرتي الجميلة، وقبل أن يخيم الليل، كان النهر بعيداً، تلفّني غيمة من رماد، ألوّح بيدي للعابرين، وقبل أن تبتلعني أجفل على صياح صاحب المقهى:

– اجمع نقودك وارحل، المكان لا يصلح للتسوّل.

أحدّق في المكان، أراني مفترشاً الرصيف، مسنداً ظهري إلى الجدار، أتمتم بصوت مسموع:

– يا الله، يا الله، يا....

استرخي على أمر غير مــألوف، حالي يرثى له، أغضض بصري، أختبئ خلف ابتسامة كليلة، أجمع النقود وأمضي مسرعاً، أحثّ الخطى فقد أدركني العشاء، كان الطريق موحشاً. جاري المسكين يلوّح لي عن بعد، متّكئ على عكاز ملفوف بخرقة بالية، كان فرحاً بقدومي، ينقل خطاه في اتّئاد، يرتّل حفاوة الترحاب، يبعث في القلب مسرّة، يقيّدني الخجل، أدخل الدار خلفه، أتسمّر مكاني، تغشاني فرحة لّما أبصرت ابتسامة عريضة ترتسم على شفتي عاتكة، تقبل عليّ فرحة:

– بابا، بابا، انظر إلى لعبتي، أليست جميلة؟

أطوّقها بيدي، أضمها إلى صدري، أقبّلها،

" كم كريمٍ أنت يا إلهي ".

تعاود اللعبَ مع الصغيرات، كانت بنات جاري شاحبات اللون، حافيات، جلسنا في باحة الدار، لبثت ساكتاً، أستكشف حال هذا الرجل

الكريم، لم تكن في الدار إلّا غرفة من طين، كان الفقر والحزن فيه غارقين، سرت في داخلي شفقة وحزن عليه، لم يكن أمامي إلّا أن أدسّ يدي في جيبي، أخرج النقود وأنثرها على بناته.

*بزيبز: جسر يربط محافظتي الأنبار وبغداد، عبرت عليه موجات من النازحين بسبب استباحة محافظة الأنبار من قبل تنظيم (داعش) الإرهابي.

obeikandl.com

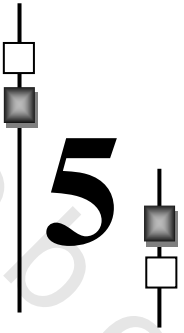

5

غبار القصائد

في ساحة الميدان رأيته يحثّ الخطى إلى شارعه، أسطورة علت صهوة القوافي، لم يمسَسْها كدر، تتبعه خيول من كبرياء، تظلّل سَيرَهُ أسراب السمو والبهاء، يهزّني طرب اللقاء، حسبي دقائق معدودات؛ لأبحر في عوالم الصور والخيال، عوالم تناطح الغيوم، تلكزها، فتشدو مطراً من كلمات، تتلو سورة المجد رعداً في مواكب الكلام. أمضي قدماً خلفه، لعلّي أدرك ظلّه قبل أن يختفي بين الباعة المتجولين، باعة أكل الرصيف أعمارهم، طاعنة وجوههم بالشقاء، أيديهم تلوّح له سلاماً، وقبل أن أجهّز أوراقي وأهيّئ كاميرتي، سمعته يذمّ الدنيا ملتاعاً،

لَحَا اللهُ الدنيا مُناخاً لِراكبٍ ... فَكلُّ بعيدِ الهمِّ فِيها مُعَذَّبُ

كان الوقت صباحاً، أنثر النداء خلفه:

- أبا محسد..
- نعم يا ولدي.
- أريد أن أقطف وردة من بستانك.

obeikandi.com

يبتسم، يطوّقني بندى السؤال:

– ألا يكفيك عطرها؟

– بلى، ولكن أريد أن أفخر بها.

عبرنا مقهى الزهاوي معاً، نقلّب صفحات مدائن الشعر، مدائن قضمتها الخرائب، توقف فجأة، أراه محدّقاً في لوحة تعلو باب المقهى:

– أ ترى تلك الندب؟. تلك أسماء أهيل التراب على مربدها.

– سيدي دعنا نسترح هنا قليلاً قبل أن تلتقي مريديك.

– أين؟

– في مقهى(حسن عجمي). هنا يا سيدي، تتجلى أنفاس الشعراء والكتاب وعشاق الحرف، أماني وملامح أحبة افترشت أرضها قبل أن تزكم أنوفنا رائحة البارود؛ فتفارقنا إلى الأبد، فاملأ جوانحي غبطة وأوراقي جواباً قبل أن ترحل ثانية.

استوى على عرشه كما الطاووس، يقلّب بميمنة الشعر صفحات الكوفة وبغداد والشام، وأخرى لمصر، فتراني معلّقاً بغبار الأسماء والقصائد، ينتصب أمامي سيف الدولة الحمداني وأبو المسك وأبو الفضل بن العميد...سألته:

– لِمَ لم تحفل بشعراء بغداد لمّا نالوا من عرضك وتباروا في هجائك؟

– أتقصد ابن الحجاج والحاتمي وابن سكرة الهاشمي؟

– نعم سيدي الجليل.

– لقد فرغت من إجابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم في الشعراء:

أرى المتشاعرينَ غروا بذمى ... ومن ذا يحمد الداء العضالا

ومن يكُ ذا فمٍ مرّ مريض ... يجد مراً به الماء الزلالا

أهزّ جذع الفضول، يتساقط صدى الشبهات أحجية نبوة، كان الشاعر مصلوباً على أجنحة الكفر،

– وأيم الحرفِ، إنّي نبي الشعر لا غير.

يداهمني أثر في جبهته، ينتزع ذكرى أليمة، أوصد عليها أبوابه مكرهاً،

– جرت بيني وبين ابن خالويه النحوي مسألة في اللغة، وقد ضعّفت رأيه، فما كان منه إلّا أن يرميني بدواة حبر؛ فكان هذا الجرح، جرح أعلن فراقي عن الأمير. وقتئذ أطلقت صرخة استنكار في حضرته:

يا أعدَلَ النّاسِ إلاّ في مُعامَلَتي ... فيكَ الخِصامُ وَأنتَ الخصْمُ وَالحكَمُ

الماضي يمتدّ بيننا جسراً، الحرف يصهل بين شفتيه متّشحاً بالزهو، يطارد خيل ربات الشعر، عيناه تأسران المكان، أنفاسه تسكنني، نوارس التفرّد تحوم حول رأسه... قلبه يهفو إلى سوق الورّاقين، الشعراء والكتّاب يمدّون له سهلاً، يصطفّون شوقاً ليكتبوا معلّقة اللقاء.

عند بوابة سوق الوراقين، يستوقفنا رجال من الشرطة، تصفعهم الحيرة لرؤية صاحبي، تتملكهم الدهشة من غرابة زيّه، يوخزني التساؤل:

– إلى أين؟ ومن يكون هذا الغريب؟

– هذا مالئ الدنيا وشاغل الناس.

– أمجنون أنت؟ أرني هويته.

يعتريني الصمت والذهول ممّا يجري، يصيبني الذعر، الأجواء غائمة، أقع في دائرة مشادة كلامية، يورق الغضب في دمي. الضابط الواقف جانباً يأمر باعتقالنا بتهمة الشغب:

– عجيبٌ أمركم، والله لو تعلمون ما قاله الجواهري في حقّه لما اعتقلتموه.

– وماذا قال؟. كانت كلماته ساخرة.

– تحدّى الموتَ واختزل الزمانا ... فتىً لوّى من الزمنِ العنانا

فتىً خبطَ الدُنى والناسَ طرّاً... ...وآلى أن يكونَها فكانا

وقبل أن نساق كالخراف إلى مركز الشرطة، أطلق ضحكة عالية:

– قل كلمتك لقاضي التحقيق، لعلّ الجواهري يكفل خروجكما.

وبعد ثلاثة أيام عصيبة قضيناه في غرفة مظلمة، أُطلق سراحنا لعدم كفاية الأدلة، على أن لا يدخل صاحبي سوق الورّاقين.

ودعته عند رقبة الجسر معتذراً لما جرى، وقبل أن يعبر الجسر ناحية الكرخ، التفت نحوي:

– أوصيك بني، والشعراء، أن تطعم حرفك بهاء الصدق وعظيم المعنى، اجعله وهجاً تهيم به فراشات الحب والجمال، ولا تخشَ إلّا الله.

كانت قوافي الشعر وبحور الفراهيدي تلهث خلفه شوقاً لنبضات قلبه. في ذلك اللقاء كنت غارقاً في ينبوع الجمال، تداهمني غفوة السحر، كنت تائهاً في كهف بيتين من الشعر، في حروف من ضوء، خُطّت بماء الألق على جيد تمثاله الغافي على شاطئ دجلة:

أَنَا الذي نَظَرَ الأعْمَى إلى أدَبِي ...وَأسْمَعَتْ كَلِماتي مَنْ بِهِ صَمَمُ

الخَيْلُ وَاللّيْلُ وَالبَيْداءُ تَعرِفُني...وَالسّيفُ وَالرّمحُ والقرْطاسُ وَالقَلَمُ

ربما نلتقي في المرة القادمة في سوق الورّاقين حين تحفّ بنا نهارات تحتضن ضوءاً شاسعاً، يتسع لوهج العاشقين على ضفاف مربدنا.

6

الكُمبارس

هناك حيث مقاهي الظلّ، ضجيج أسى وأحلام يقظة تحلّق في مستنقعات يابسة، منفعلة بأوهام التخيلات، ثمة مقهى تقع في طرف زقاق منسي، تعجّ بالحالمين، ينتظرون إطلالة مندوب أستوديو الإنتاج كلّ يوم، علّه يشير بسبابته على أحدهم؛ ليؤدي دوراً صغيراً في فلم، أو دوراً هامشياً على خشبة المسرح، أي دور كان، خليفة، تاجراً، سكّيراً، مليونيراً، جندياً، أي دور حتى لو كان قوّاداً، كانوا مهووسين بالسينما، يتقاضون أقلّ الأجور ليسدّوا رمق الإملاق، لا أحدّ منهم يستطيع الفكاك من أسر العيش في الظلّ، يتنفسون أحلامهم خلف الكواليس، إلّا هو، كان يحلم أن يكون نجماً، لكنّه لم يفلح، كان منسيّاً، منفياً، يفكّر في تزيين صومعته، قابعاً في صمته، محدّقاً في سقف الزمن، يرمي حجراً في الفراغ، يتوسّل

أحلامه لمّا بدا يجوس قتامة الخريف. يطلّ على عالمه المنتظر من ثقب إبرة، يرتدي ثوب الكُمبارس منذ عشرين عاماً، يمتطي الحلم حصاناً في ميدان المتاهة والضياع. كثيرون فتحت لهم أبواب السماء، اعتلوا صهوة المجد صدفة، وآخرون لفّهم نسيج العنكبوت ليخوضوا في وحل النسيان. يفتضّ صوتُ أحدهم صمته:

– الريجسير قادم.

تشرئب الأعناق، الأبصار تمتدّ نحو باب المقهى، تنطلق الأحلام مرفرفة بأمل دور صغير، بيد أنّه تجاوز الجميع. أسمع وقع خطواته، أتوكّأ على التفاتة أمل، تتهودج نظراته فوق ملامحي، رعشة تسري في جسدي، أتأرجح على خيط نور، فأنا ما زلت وسيماً، حاذقاً، أتقنت كلّ الأدوار المذلّة، تلقيت صفعات وسباب حتى لامسني الجنون، يأسرني الصوت:

– أنت .

أرتكن إلى نرجسة الروح؛ كي لا أنطفئ، مختلطاً بتلة من الهواجس، لأبقى صامتاً رغم دهشة الحضور، حدّق الرجل في وجهي مبتسماً على غير عادته، يتفرّس ملامحي، وكأنّه يمعن النظر في مرآة لم يرها من قبل، جلس لصقي، ناولني حزمة من الورق، أكبحُ استغرابي، لهفتي، لمعرفة الدور، أفكر بقلق شديد، عشرات الأدوار أسندت إليّ، لم تتجاوز جملة، جملتين، مشهداً صغيراً، مشهدين، فما بال هذه الأوراق؟. يقدّ صمتي بصوت أقرب للهمس:

– أنت محظوظ، ستؤدي دور البطولة هذه المرة أمام " كاميليا"، لا تبرح مكانك.

" الكُمبارس" عنوان فلم جميل، يسرق ابتسامة شفيفة من شفتيه الملتهبتين بالصمت، يبدو أنّي ما زلت على قيد الحياة ، تنفتح له كوة، يطلّ على مقهى النجوم، ينظر عبر الممر المؤدي إلى معبد الجمال، معبد منثور بأزهار النرجس، ينثّ سحراً، تظهر له كاميليا بكامل زينتها، كانت تنتظره، يحدّق فيها، يشمّ عطرها عن بعد، يتشربه بعمق، يغرق فيه ثملاً. ابتسامتها، شفتاها المنقوعتان بماء الورد، بياضها، يجرح شغاف قلبه، يبهج حواسه، سأقيم عزاءً لكلّ ذكرياتي النابضة بالجفاف على شرفة رقّتها، شرفة مغطّاة بالنرجس وزنابق الدفء، وأمارس بعض جنوني في جلال يليق بروحي التائقة للتوهج، سأتهدّج في البروفة كما نسمة صيف على ضفة جدولها، ستعشق كمبارس أتقن دوره شغفاً ببريق عينيها، أكاد أقترب منها، أختلس همسة عطرها، أتعرى شوقاً لأنفاس رعشتي، سرور وحشي ينتابني، تستعر فتنتها، تحتلّني ابتسامتها، أرتعد من ذات الصوت:

– الريجسير قادم.

أهرع إلى باب المقهى، الحالمون يحلّقون حول فجر أمنية، يطاردون حلماً ضبابي البهجة، يَتْلون رغبات بسيطة، لا خيار لهم سوى أن يكونوا جزءاً من المشهد. مندوب أستوديو الإنتاج يحرث ملامح الحضور بنظراته، يتجاهلني، يشير إلى أحدهم بطرف سبابته، تنطلق السيارة وسط ذهولي، العرق يتصبّب من جبهتي، أرتطم بوجه الحيرة، ألتفت إلى يمين الوجع، أحدّق في اللافتة المنتصبة وسط الجدار، أقرأ حروفها بالمقلوب "مقهى النكرات"، أغرق في صمت يبوح بالدموع، يسكرني كأس الخيبة، ينخر فاكهة الخيال،

" هل الحلم خرافة؟، أيمكن أن يكون حقيقة ذات يوم؟ ". قهقه بصوت عالٍ،

" أنّى للثمل أن يحلم ولّما يتبيّن الخيط الأبيض من خيط النسيان؟".

يمضي وحيداً في أساه، يحصي نخوم الذكريات، تتزاحم خلفه أزمنة شائهة، كان الطريق أضيق من خطواته.

obeikandl.com

7

رقصة فزع

بين خطوة وأخرى يقف، يرفع رأسه، يحاول أن يفتح عينيه كمن يفتّش عن شيء ما، يمطّ شفتيه ممتعضاً. كان الوقت خريفاً، الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، الطريق موحش، خالٍ من المارة، الأزقة يلفّها صمت مخيف، يسلك طريقاً آخر لعلّه يهتدي إلى بيته، يقع في حيرة، الأزقة متشابهة، كلّ شيء صار رمادياً، يمدّ يده، تصطدم بجدار، يحدّق فيه، يبحث عن كوة لعلّه يرى شيئاً خلفه، يحاول أن يزيح غمامة تكورت أمام عينيه، البصر يرتدّ، يغور خلف ستار الظلام، تختفي الأشياء أمام ناظريه، يلحس الخوف ما تبقى من عقله، يتكوّر حول نفسه، يجلس لصق الجدار، يضع رأسه بين يديه، ينتظر بزوغ الشمس لعلّه يصحو من سكره. بعد غفوة يصحو على وقع أقدام مخيفة، يلقي نظرة حول المكان، يتحسّس مؤخرته، يبدو أن برودة العشب سرت إليها، تتماوج أمام عينيه ملامح

obeikandl.com

رأس كبير، له أذنان طويلتان، عيناه تشكّلان كابوساً معلّقاً في الهواء، وجه يلهث وراء ضباب كثيف، متّشح بسطوة عواء الريح، مشهد يسكنه الرعب، تتزاحم خلفه عوالم غامضة، تتّسع عيناه، يتأمل المسافة الوهمية بينهما، تلتهمه المفاجأة، إنّه حمار جاره، بائع الغاز. أخذ يربت على ظهره فرحاً، يمسّد شعر رقبته، يقبّل رأسه،

" شكراً لك - أيّها الحمار- لقد هديتني إلى الطريق".

وقبل أن يدلف إلى الزقاق، تتناهى إلى سمعه أصوات غريبة، يرتدّ إلى الخلف، يلوذ بالحمار، يمدّ رأسه بحذر شديد، ينظر بامتداد الزقاق، كانت مفاجأة ثانية، ثمة جنود أمريكان مدجّجون بالسلاح، يحاصرون المكان، يبدون في أعلى درجات الحذر، في الجهة اليسرى تركن سيارة همر، حاول أن يحصي عددهم ولكن دون جدوى. الظلام شديد، الزقاق يرقد في صمت مريع،

" ما العمل؟ هل أقضي ليلتي برفقة حمار؟".

الجنود يتوارون خلف الهمر، إلّا واحداً، يقف محنّطاً خلف برميل صدئ، يلمع قرط فوق شحمة أذنه، يحمل بندقية، متأهب لكلّ طارئ وكأنّه صياد يروم الانقضاض على فريسته. يطيل النظر إلى شرفات البيوت بكراهية تبرق بها ملامحه، يسحب عينيه، يصوبهما نحوي، أجفل، أدسّ رأسي بين أقدام الحمار، أخشى أنّه تمكن من رؤيتي، تتسرب رائحة الروث إلى أنفي، أشعر بالاختناق، أقف مرتبكاً، ألتقي بوجه الحمار ثانية، أحسّه يضحك منّي، يبدو كلانا يرتدي ذات الوجه،

" أ تراه يسخر مني وهو يشهد فزعي؟ ".

لا، الأمر ليس لعبة، إنّهم جنود غزاة، لا يعرفون الرحمة. الحمار ينهق ساخراً، وكأنّه يسألني:

– لماذا لا تذهب إلى بيتكم؟.

– لو لم تكن حماراً لأدركت سرّ خوفي، فأنا رجل أعزل، لا أملك غير أسمال بالية، وتلك الخرابة الراقدة خلف الهمر.

رأسي يمتلئ بالوساوس، يتلبّسني القلق، ربما سيدخلون بيتي، لا بدّ من عمل شيء، فكرة المقاومة تحلّ في رأسي، هي ليست جديدة، حتى الحيوان يدافع عن نفسه، الدجاجة هذا الكائن الضعيف يدافع عن أفراخه إذا ما دنوت منه،

"أ تراني عاجزاً أن أكون مثل دجاجة أم أصبحت نكتة في هذا الزمن القبيح؟". أتسوّر جدار جارنا، أصعد سطح الدار، أنظر من فسحة صغيرة، البيوت تجترّ خوفها، الزقاق تلتهمه ريح شديدة؛ الغبار، أكياس النايلون، تتطاير في رقصة فزع. أنظر بطرف عيني إلى الأسفل، تلتصق عيناي بوجه الجندي القابع خلف البرميل الصدئ، رماد النعاس يرقد على جفنيه، أبتسم، أرتدي ثوب شبح، أنا أعلم أنّه خائف، قوّتي تكمن في اختفائي، هو لا يراني. أرميه بحجر صغير، يفزّ، يلتفت إلى جميع الجهات، لا أثر لمخلوق، يأخذ مكانه ثانية، أرمي بحجر آخر خلفه، يرتبك، يتوارى خلف الهمر، الجنود ينتشرون في الزقاق، يخيّل إليهم أنّ الليل سرمدي، كانوا يتمنون إدراك الفجر. بعد صمت مدجّج بالترقب، يدخل الجنود إلى الهمر، لكن هذه المرة يتناوب على حراستهم جنديان، أحدهما زنجي. أحسّ بالزهو يملأ كياني، أرمي السيارة بحجر أكبر، يحدث صوتاً مدوياً؛ فما كان من الجنديين إلّا أن يضيئا السماء برصاصات عمياء. يضطرب

الليل، يفتح بابه على صراخ الأطفال وفزع أهل الزقاق، الجنود كلّهم مندهشون، أسلحتهم مشرعة في كلّ الاتجاهات، يبحثون عن هدف وسط الظلام. أنسلّ بهدوء شديد من السطح إلى حصني قرب الحمار، كان الوقت يقترب من الفجر، الحمار يعلم أنّي من فعل ذلك، وما من أحد غيري. المسافة بيننا لها مذاق الهدوء، كنت أحلم بإشراقة الشمس؛ كي أقتنص فرصة للحياة. الحمار يضخّ نهيقه في الفضاء، يرسم ضجيجاً في عتمة المكان، يدور حول نفسه في رقصة غامضة، الكلاب المنتشرة في الطرقات تشاركه في نباحها، أهرع إليه، أتوسل صمته، أنظر في عينيه، أتعثر بهاجس غريب، تكتمل يقظتي، القلق كبير، لا يسعني الانتظار، أفكّ عقدة الحبل، أربطه بصفيحة معدنية، الحمار يهزّ رأسه، أدخله الزقاق، يجر خلفه الصفيحة المعدنية، الصوت وصداه يعزفان سمفونية الرعب، يقطعان أنفاس الصمت، حان وقت الحفل؛ فليختاروا أية رقصة شاءوا، الجاز، الفالس، البولكا. الجنود يباغتهم الضجيج، يصيبهم الفزع، الهمر تنسحب وسط نيران كثيفة، الصوت ينقطع عند آخر الزقاق، بينما الجنود الراقصون فزعاً يتلاشون حين ينهق الحمار بصوت أعلى من حتفه.

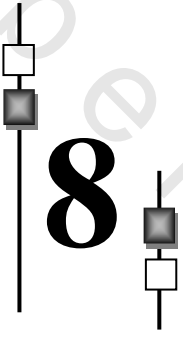

قرابين البحر

ما بين شاطئ وآخر مسافة حلم، الحلم - كما يراه- يرقد هناك، خلف المدى، وهج حياة باذخة الجمال، حدائق غنّاء، غابات فرح، وعناقيد مسرات، هنا تجثم فوق الثرى توابيت حجرية، تقطر شغفاً لمن تقاذفتهم أمواج العتمة وظلال الحروب العديدة، كلّ شيء هنا يتغوّط دخاناً وحرائق، يتنفس قلقاً وتيهاً، الهنا صحراء تمتدّ من حبلك السري حتى تلك التوابيت الحجرية. يوصد باب الأمس خلفه، يحمله طائر النورس إلى شاطئ البحر، يجلس بخشوع كراهب حزين في معبده، تدغدغ ناظريه ألوان المساء، البحر مهيب، مخمور بالزبد، أمواجه العاتية تعانق السفن في رحلة عشق، السفن تعتلي ظهر الموج، تهبط مثل شهاب ساقط، بدن

obeikandl.com

السفينة يتماوج في رقصة فزع، يطفو فوق الموج ثانية، يغمض عينيه رهبة، يحلّق بعيداً، يهبط هناك مع رذاذ الموج، يتأهب للحبّ، " سأدحر الأمس بغدٍ أفضل". يبزغ طريق مكسو بالزهور، غابة تفصله عن بوابة المدينة الرئيسة، فتيات جميلات يحملن سلال الورد، يرقصن في سهل غارق بالعسل والرخام، يركضن في الغابة، يلوّحن له بباقات الورد، تتشرّب أنفاسه بعطر ابتسامتهنّ، يحتسي ظلّهنّ، ينفتح له ضياء الحلم، يمرّ بأزهار الكولونوز في مكان مرتفع حيث مأوى أوديب، عيناه تعانقان مواقع أثرية، تماثيل لآلهة الحب والجمال، تستوقفه أفروديت، يخفق قلبه لجمالها الخارق، تشيح ثوبها عن جسدها في ظلّ دوي الصنج وأنين الناي، يدور حولها راقصاً، تلتمع ساقاها، يشهق بضحكتها، يغفو عند قدميها، يصحو على وقع خطوات سقراط في رحلته البهية حيث العالم الآخر، من الملعب الرياضي إلى الأكاديمية، إلى الجبل الشامخ. رؤية تستفزّه، يغرق في دهشة غريبة، تماثيل راقدة في متحف الفاتيكان، تماثيل روداين، تصور له مشهد موت لاوكون المفزع، يحاول إنقاذ ولديه بينما ثلاثتهم في قبضة اثنين من الأفاعي عقاباً له من أثينا؛ لإنذاره الطرواديين بأن لا يخدعوا بالحصان الخشبي الإغريقي. المشهد يقلقه، يصرع غفوته، يستفيق من دوار البحر، يفزّ مرعوباً على صراخ يتعثّر بعضه ببعض، طوفان المدّ يحيط بالقارب، يتسلّق سطحه، الأبصار شاخصة إلى السماء، الموج يعلو في الفضاء، يتّخذ شكل الأفاعي، يهبط، تقع زوجته وولداه في قبضة اثنين منهما، يرتجف صارخاً مندهشاً:

– أثينا، أنا لست لاوكون، أنا لاجئ إليك...

البحر يمور، يضطرب، القارب يتماوج، يسلّم نفسه لريح هوجاء، تبتلعه زوبعة، الموت يتدلّى من تحت خوافي القيامة، الهاربون من جادة الجحيم يتدحرجون من جهة إلى أخرى، يخيّل إليه أنّ القارب أرجوحة، تقذف الحالمين في عرض البحر. ابنه الصغير ينفلت من يده، يغطّيه الموج، يقع في نوبة هلع، يجلد ذاته، يصرخ، يستنجد بالآخرين دون جدوى. موجة كبيرة تضرب القارب، ينقلب، كلّ شيء يتبعثر، يغرق، يلتفت هنا وهناك، يتأمل الفضاء، الجهات تغيّر ملامحها، المرأة الحامل التي ولدت في البحر من شدة الهول، تطفو فوق المياه، ووليدها الرضيع يجري خلفها مشدوداً بحبل السرة. يتنفس أنين الغرقى، يتهجّى صوت زوجته الهابّ من شاطئ الأمس:

– أ للبحر قربان إذا ما عبرنا؟

– نعم حبيبتي، ما تبقّى من أحلامنا، ذلك هو القربان.

يعود إلى الشاطئ الداكن مخذولاً، مبتلًّا بالهوس، يملأ كأس الحزن نحيباً، يترنّح ثملاً، يتقيأ حلماً مغلولاً باللوعة، يرتدي سواد الليل عند ثلاثة شواهد غازلت غربة المنافي ذات يوم.

obeikandl.com

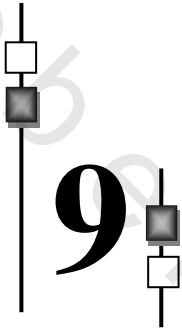

9

امرأة القمر

لا أدري متى، وكيف أتيت إلى هذا الإسطبل؟ لكنّي على يقين أنّي كنت مختلفاً تماماً عمّا عليه الآن، من أكون؟ ولِمَ لا أذكر شيئاً عن حياتي الماضية؟. أسئلة محيّرة، لم تفارقه مذ أتى هنا، يحدّق في صفحة السماء كلّ ليلة، يبثّ شكواه لعلّه يجد طريقاً للجواب، لا يملك شيئاً سوى القلق والحيرة،

" من يهزّ ذاكرتي اللعينة فأمنحه ما تبقّى من عمري؟"

لا جواب سوى صدى الخواء، وسموم تجلد ملامحه الشائخة. لا يعرف شيئاً غير النهر، وشجرة الصفصاف التي توسّد ظلّها، وأحصنة تعرفهُ جيداً أكثر من أي شخص آخر، لا يعرف سوى أنّه سائس في إسطبل يقع في طرف أحد القرى النائية، يعشق النهر حدّ الجنون، يسهر وضفّته طول الليل، يتّخذ من نسيمه العليل أرجوحة، يحلّق بعيداً حيث النجوم

obeikandi.com

والأقمار، ثم يهبط على مشارف الخواء، باسطاً كفّه لعزلته، وحيداً يلملم جراحه، يفزعه صمت الأشياء من حوله. لا أدري، كلّما استنشقت رائحة النهر أحسّني أطير في الفراغ، رائحة تمسّ أثر جرح أكاد أبصره، لكن سرعان ما يختفي في حلكة الليل، سأحتفظ بتلك الرائحة، علّها ترشدني إليّ. ما من أحد يعرف وحشة الوحدة مثلي، كانت جحيماً، حتى إن كثيراً من الناس الذين يأتون هنا لم أعد أراهم ثانية، يؤرقني أنّي لا أتذكّر ملامحهم، كلّما أحاول أن أستعيد صورهم، تبدو مشوّشة. ما أتمناه العثور على شخص يشاركني وحدتي، يهتمّ بي مثلما أهتمّ بهذه الأحصنة، أو أكون حصاناً بلا ذاكرة، لا أريد أن أكون سائساً بعد اليوم. منذ أكثر من عشرين سنة، أو ثلاثين، لا أدري، وأنا أنتظر قادماً من المجهول يطفئ حيرتي ويخفّف دمعي، يزيل الحجب عن رؤياي؛ حتى النهر الذي عشقته، كلّما أحدّق فيه أرى ظلّ رجل يشبهني، أطرح عليه السؤال نفسه، لا النهر ولا هو يردّان جوابي، لم يعرفا غير الصمت مذ فارقت اسمي. ذات ليلة قمراء، كنت أنقّب في وجه القمر، تراءت لي امرأة يُخيّل إليّ أنّي أعرفها، كان جوارها طفل يلثم نهدها، يا ترى من تكون؟. الأيام تمرّ سريعة، تنسج يأسي، أكاد لا أرى في هذه الحياة غير موتي، ربما هذه الكائنات التي تمرّ أمام ناظري كلّها أموات، من يدري؟ لعلّ هذا العالم مقبرة كبيرة، ليس فيها لآمالنا محلّ. بدأت تراودني فكرة الخلاص، حتى نضجت في البال، لولا ذلك الحلم الذي أخر موتي، حلم يكاد يتكرّر كلّ ليلة، قمر نصفه امرأة، ونصفه الآخر طفل، امرأة حزينة، تحدّق بي، عيناها فيهما شيء من دمعي، يحملان عتباً، يضمران تساؤلاً. لم أترك أحداً إلّا وطلبت منه تأويل حلمي، الجواب يأتيني متشابهاً " أضغاث أحلام ". لم يدم الأمر طويلاً، ذات ليلة

شتائية، تناهى لسمعي طرقات على باب الغرفة، ربما كانت جلبة أحدثتها الريح، يتكرّر الصوت، يبدو أن شخصاً ما خلف الباب، يا ترى من يكون؟.

- من الطارق؟.

- عابرة سبيل.

وكم كانت المفاجأة حين رأيت ذات المرأة التي تسكن القمر، التقت عيناي بعينيها، حدقّت فيها ملياً، نعم هي بلا شك، ذات الوجه الشحوب الحزين، كنت ألمح في عينيها بارقاً يعتصر قلبي:

- مَن؟ امرأة القمر!

لم تنبس ببنت شفة:

- أين الطفل؟

علتْ شفتيها ابتسامة شفيفة، استدارت إلى الوراء:

- أيّ طفل تتحدّث عنه؟

- ومنْ تكوني...؟

- عابرة سبيل. ثم ألقت مكامن سرّها:

- هناك من يروم قتلي، هل لك أن تأويني وتحفظ سرّي؟ وبلا تردد أجبت:

- نعم سآويك...

امرأة يشكّلها الحنان، عامرة بالأسى، لها رائحة النهر، قطنت أرضي اليباب، يندلق من عينيها شعاع ضوء، يمتدّ في فضائي المسكون بالصمت؛ ليلامس شغاف القلب، ضوء ينير عوالمي المظلمة، وكأنّي وجدت الطريق إلى التذكّر، نافذة أطلّ منها على تلك الأيام، لعلي أفتح باباً أوصده الزمان،

هكذا كنت أظنّ، كنت متّكئاً على ضلّ الضوء، مكتظاً بالحنين، لكنّ الأمر بدأ يقلقني، حيث أرنو ببصري إليها من خلف النافذة، أراها تسند ظهرها إلى شجرة الصفصاف، شاردة العقلّ، وكلّما أسألها عن سرّها الدفين، تتنهد بلوعة، تجهش بالبكاء. كنت دائماً أصغي لصمتها، مردّداً،

" يكفيني صمتك، وهذه الدموع، يا امرأة القمر ".

كانت تطعن ذاكرتي بسؤال لم أستطع أن أجيب عنه:

– أنا نور، لِمَ لا تحفظ اسمي، يا عاشق القمر؟

ذات يوم كنت وإيّاها في الإسطبل، الحيرة تكاد تفتك برأسي، أدور في متاهة لغز، أليس لها علاقة بسنيني الماضية؟، أنا مدرك تماماً أنّها ليست عابرة سبيل، ولم يكن الأمر محض صدفة، أترجّل من صهوة الأحجيات، أُلملم أوصال ذاكرتي المعمّدة بالنسيان، أرى في الروح مخاضاً يتسلّق أفق ذاكرتي، حينها كنت مسنداً ظهري إلى سياج الإسطبل؛ همحمة الحصان الأدهم تقطع خيط الوصل، يحدّق بي، لم يطأطئ رأسه هذه المرة، لا أعرف السرّ لمَ أكره هذا الحصان دون بقية الأحصنة. فكرة رعناء حلّت في رأسه، سلّط سوطه عليه، حتى تعالى صهيله، الحصان يدور في مكان ضيق، يلوذ بزاوية الإسطبل، الضربات تنهال عليه من كلّ جانب، يرفسه بعنف، يسقط أرضاً مضرجاً بجنونه، المرأة هرعت إليه صارخة، أرادت أن تقول له شيئاً، أطبقت فمها، حين رأته فاقداً الوعي، شاخصاً بالغياب. عيناها ترنوان إلى المشفى، يسبقها اللهاث، تتعثر بتفاصيل الاحتمالات:

– ربما لا يبصر ثانية. قال الطبيب.

لحظة قلق، المكان محفوف بالصمت، انتظار لعين، طويل، المرأة تغرق في لجة المجهول، يتسوّرها رعب العتمة والنسيان، الجميع يترقّب اللحظة،

يفتح عينيه ببطء شديد، لم يبصر سوى ضباب كثيف، عيناه تتسعان، صور مشوشة بدأت تتسلّق مشهداً يرتسم خلف الضباب، أغمضَ عينيه، فتحهما على اتساعهما، صفّ من أشخاص بلا ملامح، ارتدّ الطرف حائراً، إحساس موغل بالقلق، متّشح بالخوف، نقّل طرفه بين الحاضرين، يقف على صورة في طرف الصف الأيسر، تنبثق من خلف العتمة، مؤطّرة بالضباب، الصورة تتفتّح كما زهرة عباد الشمس، حيث مال النظر تميل، تتضح الرؤية، يبتسم:

– نور، امرأة القمر!.

ألقت بنفسها فوق صدره، يضمّها بين ذراعيه، يقبّل جبينها:

– من أنا أيّها المجنون؟

– نور.

– هل تراني؟

– نعم، وبكلّ وضوح، لا تخشي شيئاً، حتى لو لم أرك سيقودني أنفي إليك.

سؤال قديم مازال يصهل بالحسرة:

– أين الطفل؟

– أ وَ تذكره؟

– نعم مثلما أراك الآن.

– لقد مات؟

– وأين أجد قبره؟

– هناك، تحت شجرة الصفصاف.

obeikandl.com

10

أهلاً بكِ ... ننتظركِ في بغداد

الوقت مساء، المدينة تلتفّ حول جبل الأسمر، تتّخذ شكل القوس، ترتدي ثوباً ناصع البياض، مطرّزاً بأغصان الشجر، تعدو مبتهجة بين جبلي سلمى وأجا، هي عروس صحراء جزيرة العرب، خيوط الشمس الذهبية تداعب رمالها، ترسم لوحة زاهية الألوان على جدران منازلها. ثمة شفق أحمر يهبط على شفاه ست نساء، إحداهنّ ترتدي نقاباً أسود، يلتقينَ في عطلة الفصل الدراسي برفقة أزواجهنّ، في نزهة قصيرة لحديقة واسعة، يخترقها وادي الأديرع*، النساء مزهوات بأزواجهنّ، يخترقنَ مسطحات خضر تعجّ بخطى السائحين، يقتربنَ من بحيرة صناعية، تتوسطها نافورة، يحططْنَ رحالهنّ قرب شجرة كثيفة الأغصان، المكان يتنفس أحلامهنّ، يصغي لهمس يتعدى حدود الأسرار. كان كلّ ما يدور في فلك الحديث محضّ التقاط أنفاس مكبوتة. تكشف إحداهنّ طقسها الليلي، متباهية

بزوج مفتول العضلات، تتلوى غنجاً بين ساعديه؛ فتثير فيهنّ أحلاماً يقظة. المرأة ذات الجسد النحيف تطلق آهة حرى:

– ليس من اليسير اصطياد جوادي، هو ليس جامحاً، لقد هدّه التعب والتفكير في إدارة الشركة، فبعد كلّ لوعة انتظار أطلق عطري، أتسربل بثوب شفاف، أكشف له عن مناطق تثيره؛ حتى يسقط صريع لهفتي.

المرأة السمراء يبلّلها الشبق، تفتح ساقيها بلا وعي، تدسّ كفّيها بين فخذيها، تعصرهما، تمطّ شفتيها، تريد أن تتكلّم، ترتبك الحروف بين شفتيها؛ فتصمت. كانت الأجساد تتراقص إثارة على وقع تفاصيل الغرف المتّشحة باللون الأحمر. في الجانب الآخر من المدينة، ثمة طرقات تمتدّ كأذرع، أزقتها غارقة في العتمة، ترتصف فوقها بنايات رافلة بالضوء، يعانقها وشاح المساء والأشجار، دونها صحراء تمتدّ حتى البحر، الأطفال فرحين بالأضواء والأراجيح والطيور، يغسلون وجوههم برذاذ النافورة الراقدة وسط البحيرة. الزوجة الأصغر سناً، تنصت إليهنّ بشغف، تبدو معتلة النفس، يسكنها الحزن، على الرغم من أنّها الأجمل، الزوجة المقابلة لها ذات النقاب الأسود تشجعها على الكلام، تتجه أنظار النسوة إليها، تطلق ضحكة بريئة، يخرسها الحياء، تتداعى أمامها مشاهد لم تفصح عنها،

– كم عمرك؟

– عشرون سنة.

– وزوجك، أبو إدهام؟.

– خمس وستون.

– وهل الأمر على ما يرام؟.

– نعم، لقد لبى كلّ طلباتي، حتى الشقة سجّلها باسمي.

تحاصرها بعيني ذئبة، تفترس قوامها المشوق،

- ألم تخسري حياتك؟.

- أنا لم أخسر إلّا حذائي.

ينسلّ من شفتي ذات النقاب رائحة سؤال كريه:

- وأيّ حلم ترتجين بعد هذا؟.

تنتصب أحزانها، تتعثّر بجسد بارد، بجثة تورق أوهاماً، تزدحم بالغيظ:

- يكفيني حبّه، وهيامه بي.

كانت عيناها ترقبان فرح الأطفال؛ وهم يتقافزون كما العصافير في ساحة الألعاب، مدركة أنّ الحلم خرقة بالية يخدش وحدتها.

المرأة الخمسينية تنفر من أحاديث الجسد، تلكز ذات النقاب بكوعها، تهمس في أذنها:

- ما لك تقرعينها بسوط اللؤم؟ أراكِ تغرزين مخالبك في قلبها، كفّي لسانك.

تلتفت نحوها، تمتشق عصا أنثى هجرتها الليالي، يتلبّسها الشوق إلى نزوة معلّقة في حنايا الشبق، يرتجف سروالها، ينشد رائحة الدفء:

- وأنت يا سعاد، كيف الحياة بعد الخمسين؟

- أراها طقوس مضمّخة بعشق دائم، نبحر في عين الليالي، نطرب على تغاريد نبض القلب، نتدثّر بابتسامة وعطر أبنائنا؛ حتى يشرق يوم جديد.

الظلمة تهبط بسرعة، الظلّ يتكور خلف نشيجهنّ المكتوم، ينهضنَ متثاقلات بالهموم، وقبل أن يغادرنَ المكان، تدعوهن سعاد لحضور حفلة عيد ميلادها بعد عشرة أيام. قالت مازحة:

- إياكنّ أن تنسينَ الهدايا.

- سنفاجئك يا سعاد.

في البيت تتأمل سعاد ولديها، تحدّق في قمرها، يرتلان معاً سيرة أياماً خلت، تستنشق رائحة الورد؛ فتغفو بين ذراعيه، تهدهدها الأحلام. في صباح اليوم التالي تتلقى رسالة عبر تطبيق (واتساب)، حروفها كما أشواك برية، توخز عينيها، تقطب حاجبيها، تلسعها رعشة خوف، ترفع رأسها، تلقي نظرة حولها، تحطّ عيناها على غصن الحرف مرة أخرى:

- " كم أنتِ محظوظة -أيّتها الحسناء- لقد اخترناكِ لتكوني أحد السبايا لدينا، وشهيدة أيضاً، وفقك الله في منظمة داعش... ننتظرك في بغداد "

تحدّق في الأفق الممتدّ حتى البحر، تتقاذفها أمواج القلق، تزمّ شفتيها، الدهشة تلتصق على وجهها، يسوّرها قيد الخوف، ترتبك خطواتها، تحدّث نفسها،

" الرقم غريب، ربما الرسالة وصلت خطأ، أو هي مزحة، لا، أنا على يقين أنّها ليست لي، ثم ما علاقة الفلبين بجزيرة العرب؟ ".

تضحك، تكنس الأوهام من ذهنها، تمضي إلى مدرستها، تخوض في بحيرة من أحلام. في المساء تتعثّر بظلّ رسالة أخرى، تحوم حولها، الرقم ذاته من الفلبين،

" استودعي ابنيك مبارك ومحمد، وزوجك أيضاً، خلال الأيام القادمة ستذهبين معنا إلى بغداد ".

يستفزها الاختيار، الموافقة أو خطف ابنيها. في تلك اللحظة المتّشحة بالجنون، وما بين الرعب والتوقع أنّها وصلت خطأ، والتفكير في إبلاغ

الجهات الأمنية والتراجع لعلّ الأمر كلّه مقلب، تتوضّأ سعاد بدخان الاحتمالات، كوابيس الليل والنهار تهبط بها على جسر بغداد، بين الرصافة والكرخ، تتعثّر بالخراب ورائحة البارود، ينقلها طائر يشبه الرخ إلى جحيم البراري، إلى سوق النخاسة، نساء جئنَ من كلّ حدب وصوب، يخضنَ في أوحال جزر وحشية، يتقيّأنَ انتظاراً على أرصفة زمن صحراوي موحش، مشهد رسمته سطوة الظلام، تحيط به الهاوية، العيون زائغة، تقتات على أجساد مصلوبة على دكّة الأمير؛ فتنطفئ تلك الأجساد في سجلات الجهاد، في صحراء عارية من ظل السماء. المفتي ذو اللحية الطويلة يستقصي أنفاسها، سوطه الطويل ينتصب أنشوطة، يلتفّ حول رقبتها، جسد سعاد ينتصب تمثالاً من حجر، يستلقي على سرير الشهوة، فتحجب الأحلام، النور، على وقع الطبول، ألسنة الصحراء تلحس ساقيها، فخذيها؛ فتذوب كما الجليد، يختفي المشهد على صراخ سعاد.

الوقت يمضغها، تختنق بأنفاسها، تتفتّت، تغرق في موجة هذيان، الموعد يقترب، وجه المفتي ما زال يلاحقها، تسرح بصرها بعيداً، ترتجف عضلات وجهها،

" آه، لو لم أرَ هذه الرسالة اللعينة "

الزوج يطالع حزنها، يصغي لصمتها، يؤلمه ذبولها، يحلّق في عوالم الأمس، كانت له زهرة فواحة بعطرها، رقيقة كنسمة الربيع،تطلق عنان الفرح،تحلّق في فضاء المحبة مبتهجة، مثل فراشة ملوّنة. خيط من نور يداهمه، ينسج رداء الشكّ، يدّس رائحة الأمل في أنفها، تقدح وجوه في عالم الذعر والقلق، عالم غريب يقف أمامه، يرى مدى قبحه، هنا تكمن الدهشة إنْ صدقت الرؤيا:

– لابدّ أن نحرر أنفسنا من هذا الوهم، ربما هو مقلب، أو حماقة مريض توهجت في لحظة انتقام.

– ماذا تقصد؟

تعتلي تلّة من الظنون، تفترش ملامح صديقاتها، قريباتها، تقلّب صفحات الأمس، كان الوضع مريباً، قد تكون الزوجة الصغيرة، أو ذات النقاب الأسود، وقد تكون...وقد يكون... تتسع الاحتمالات.

– لا عليكِ، سأوقد شمعة فرحك المؤجل.

تنتصف ليلتها، تجري بين متاهات الشك، تطلق سراح الخيال، كانت خائبة، حزينة، يستعصي عليها الوضوح؛ فيبقى الألم؛ لتغفو على انتظار الحضور لعيد ميلادها. قبل إطفاء شموع الفرح تتشكّل لوحة سريالية، مؤطّرة بألوان مبهرة، تتراقص على أطرافها أضواء المحبة، تختلط بأنغام الفرح، ملامح الصديقات والقريبات مزدانة بالبهجة والسرور، هدايا ثمينة، ابتسامات ترتسم فوق الشفاه، تهاني متبادلة، على يسار اللوحة ترقد علبة مزركشة، إلى جانبها وردة جوري، تفوح عطراً، وبطاقة تهنئة مدجّجة بحروف ينبثق الموت منها،

" عيد ميلاد سعيد، لا تنسي، لقد اخترناكِ لتكوني أحد السبايا لدينا، وشهيدة أيضاً،..... ننتظرك في بغداد "

المكان يزدحم بالدهشة والاستغراب، الرعب يهاجم عينيها، يفرّ الكلام من شفتيها، تنتفخ أوداجها، لم يكن في الحسبان ما يحدث،

" لا أحد يعرف ما بي، ربما أحداهن تدرك علّة ذعري من هول المفاجأة"

تتحصّن بأسوار الحكمة، تستعيد رباط جأشها، ترمي بمخاوفها، تتمتم مع نفسها،

" لابدّ من إتمام السهرة حتى أفهم وأستريح "

تطفئ صمت الحضور:

- إنّها مزحة، أما من زغاريد؟.

في تلك المتاهات الغامضة، وفي ظلّ أغاني باهتة، كانت محمولة على كتف نعش غريب ومخيف، لا وجهة لها غير السماء، كلّ شيء مثقوب، أمطار دامية، أقدام غريبة تسحق أقراطها، قلائدها، ينهكها الجري وسط ظلام متخثّر، عينا المفتي تستمرئ مذاق جسدها في ممالك يسكنها ظلام الخرافة؛ وبينما تتأمل مصيرها المجهول، تستوي على رنّة رسالة نصية صادرة من مركز شرطة المدينة، المسافة بينها والحرف غائمة، تحاصرها الظنون، تحتجب خلف دقات قلبها المتسارعة، تتسلّل عبر عينين لا يرمشان، تلتقط بعض الكلمات، الطرف يرتدّ مثقلاً بهاجس غريب،

" لقد تمّ التعرف على صاحب الرسالة، إنّـ ..... "

لم تكمل قراءتها. صور الحضور تتماوج، تغرب في عينيها، خشية أن تكون واحدة منهنّ/ منهم؛ فيُفسد الحفل. تمدّ ظلّها على الحضور كشجرة جميلة، تبتسم:

- الآن نطفئ الشموع.

---

*وادي الأديرع : وادٍ فسيح تقع فيه مدينة حائل السعودية.

obeikandl.com

11

١٧٠٠

إلى: أرواح شهداء سبايكر *

قبل أن يرشقه وابل من ضجيج الموت، ملتفّ ببيارق الغائبين، كان يبتهل شوقاً إلى عدسة التصوير كلّما هزّه الوجد، يداعب أحلام قلمه الصغير، المعلّق بين أنامله الجميلة، اعتاد كلّ ليلة يهفو إلى أسطره، يدسّ أساه بين ضلوعها وحين يدركه الفجر يغادر نحو ظلمة النهار المغلول بالضجيج والكتمان، يراقب تعاقب قهقهات الحمقى، الناس تتجاهل الضجيج، تحتمي بأفق مختنق بالصمت، النهار يلتفّ بأسمال موت بالٍ، مرتبكاً بضجيج الجيوش، يلامسه ظلّ رغبة بريئة، ينطلق كالطفل يجوس لعبته هائماً في مجاهيل الضباب، فتينع أسراره الدفينة عند حرف غفا بين شدو أسطره أشجاناً ترتجف بالهيام، ثمة كارثة في الضفة الأخرى لها صدى خفقة القتل في العراء، كان كلمة، صورة أخرى تلتمس خواء

القفار. تتسلّل بين أنامله رجفة، تحدّق في عدسته، يزدحم بالقلق والأرق. المخاوف تتسلّق صمته، يتأهب؛ فتغتابه طرق ضريرة، تسعى بين خطاه، يتشظّى، يحدّق في صور متعثّرة بأحلام مقتولة. كانت الصور جرحاً مفتوحاً، تلوذ بظلال تلال متعرجة، تهذي بملامحها الغامضة.

الصورة الأولى

قفار ترتدي أشلاء القتلى عند منعطف الخديعة. كان وحيداً، يسمع صدى صراخ عن بعد، صراخ يناهض ارتعاشة الخراب، شبّت فيه رغبة في أقصى الجنون لمطاردة الصدى، يتراءى له خلف كواليس الظلّ أفواجاً من أقمارٍ عارية، تهرول بين الوديان، خائفة ضاعت دونها الخطى، كان محكوماً بغصة أشيائه المفقودة في غابة من جثث.

الصورة الثانية

كانت غصة تلعثمت بدندنة نهر هائم في ظمأ شريد، يظلّله العراء، ينازع العطشى كأس البقاء،

" عجيب أمر هذا النهر، ما له يرتدّ واجماً مرتبكاً ؟ أنّى يتعثّر بجفاف موهوم حين تلوّح له بيد من عطش؟ "

كان النهر يرتدي قمصان فجر آثم، يجهش بالموتى، عند بوابة قصر إلهٍ من وهم.

الصورة الثالثة

تعتري أفقه مدن تتقلص وجعاً، يراقصها هجير صبوة العربان، فحيح الخيانة، تلامسها فصول الوساوس، أشجار بريئة حاصرتها الريح، تكابد الأفول، كان يحنو عليها مخافة التشفّي، ينتظر سحابة عاثرة عند هبوب حزن الأرض يدعي وصلها. عدسته ترتدّ إلى الخلف، تلتقط صورة رابعة.

الصورة الرابعة

تملّكته لحظة تنوء بحشرجة قرى عالقة بغبار الذكرى، تصطفّ أمامه دروباً من نخيل، يتأرجح بين اللهفة والحسرة حين أدرك مساءات مضيئة بالبوح، مساءات تهطل في وجل أطيافاً، أطبقت أجفانها عند غشاوة جداول مرتعشة بحكايات مبلولة بشفقٍ أخير، أمهات ثكلى، أزقة تولول شوقاً لخطاهم، آباء ينتظرون المدّ، ولّما تبعثرت فيه الذاكرة رتّب جرح الأمس، لملم رغباته المقتولة بين شفتي أنامله المرتجفة بالأسى. المسافات الممتدّة إلى عالم متّشح بالرعب، تطوي خطواته المسكونة بالدهشة، تلتهم ما تبقى من ضياء في قرارها السحيق.

الصورة الخامسة

حين لجّ غياهب المجهول عند منعطف مدن صفعتها ريح التيه، ريح هبّت من مشارق الأرض ومغاربها، تنشد ليلاً مختنقاً بجنون القتل، أفزعته قيامة الصدى، قيامة تنتظر مؤرخاً لأسراب الموتى، موتى تنتفض من تحت الرماد، متعطّرة بالانتظار، تحمل شموعاً من تساؤلات شتى، تنتظر من يطفئ صمتها، دهشتها، أدرك خيبته لّما صفعه الصريخ، كانت عدسته حريصة، لم تترك شيئاً يتوارى خلف ضباب المكان، ها هي رسائلهم، ثيابهم، رصاصات خجلى مطرّزة بدمائهم، يمسح عن عين عدسته دموع حرّى، يتسمّر خلف التلّة، يصفعه المشهد، شفاه غليظة مشبعة بالرطانة، وجوه ملثمة، تحمل راية كالحة ترفرف بشهوة القتل، يغرسون رصاصات في أعناق فتية يتقافزون رعباً في النهر واحداً تلو الآخر. أومضت أنامله دمعاً يغمر وجه براءته، أناخ عند صمت القبور حين أعياه العدّ، مدّ يده، بسطت أسراب الموتى يدها بعدما لاح من طرف الأجداث بارق للنداء:

– وحدها تلك المدن اغتالت خطواتنا.

– إنّي لأعجب كيف تزدحم تلك المدن بالخيانة؟!

– كانت ظمأى للغزاة، تنادي بأسمائنا واحداً تلو الآخر، كنّا نختبئ في مآقي المنايا، نترجّل عند بوابة النداء، فتختلط دماؤنا بنهر لا يروم غير أجسادنا.

كانت كلماته تتعثّر بشهقات ملوّحة للسماء، قبل أن تختطفها أطياف آخر ليلة، بينما أشلاء القتلى تحلم بموت آخر. كان وحده قبل أن تزهر كلماته دمعاً على أديم رفاتهم. دسّ أساه بين ضلوع الموتى لمّا أدركه صخب النهار.

الصورة الأخيرة

ثمة أشباح في الأفق أسكنتها الجهات، تحمل شموعاً من دمع وقلق، تبكي خطاها، تمدّ ضفائرها للفجر، ترتّل سورة الفناء، تلوّح بآهات حرّى للقادمين من جنوب الوجع.

* سبايكر: قاعدة جوية في مدينة تكريت العراقية، ارتكب فيها مجزرة قتل الجنود العراقيين من قبل تنظيم داعش الإرهابي راح ضحيتها ١٧٠٠ شهيد في ١٢/ يونيو – حزيران / ٢٠١٤

12

في قباء الكوابيس

عند منتصف الفراغ يهبط الليل بصمته، اقترب من فانوس شحيح ضوئه، لا شيء سوى صفير يعبث برأسي، موجة برد تراقص أطرافي النحيلة، أحرك أشياء مهملة، أفتعل ضجة، أدسّ جبيني بين يدي، أتسربل ذاكرتي، أحلّق في عوالم يخيل إليّ أنها موجودة. أصحو على وقع أقدام خلف الباب، أترقبه بحذر شديد، رائحة مخاوف تهزمني، تقلقني،

"ياترى من خلف الباب في مثل هذه الساعة المتأخرة"

أستجير بخطواتي، أمدّ بصري من خلف النافذة، لا شيء يدعو للريبة. صوت الصراصير يتحسّس صمتي دون استئذان، يختلط مع الصفير العابث بمسمعي، ما كان منّي إلا أن أحرك رأسي ذات اليمين والشمال، أطوي وسادتي وأحلم بوهم امرأة تمنحني بعض خصلات شعرها، وطرف من أحلامها، أغيب في ضباب كثيف، أهتزّ طرباً، فتراني ثملاً طوّحته أول نشوة عند طرف سريرها المتدثّر بعطر أنفاسها الملتهبة،

استلقي على شهقة عناق تندلق من أعماقي . أناملياالمرتعشة بصدى الأحلام تعبث بأوراقي المتناثرة فوق سجادة مزركشة بظلّ عقيم، أرتدي رائحة الخيال، أحلّق عالياً في سمائي، أتلو نشيد الندامى، ندامى غادروا مبكرين نحو عوالم منسيّة، أتبعثر كحفنة رماد في فراغٍ من قلق حين فرّ الضوء الشحيح من فانوسي الصدئ. ثمة نباح كلاب تأتي من طرف بعيد، زوايا قاتمة الألوان تشيّع صمتي في موكب الليل المحنّط بالعتمة، الفراغ مزدحم بخليط من أصوات لا أعرف مصدرها، تهب من جميع الجهات، تحاصرني، حشد من السحالي والحشرات تحتفي بموت كائن غريب، تقترب أكثر منّي، تهبط من سقف الغرفة دمية، تنبش بأظفارها ما تبقى من الكائن الغريب بعدما هربت جموع السحالي والحشرات، ينشقّ الجدار، هوة عميقة تبتلع الدمية، كوابيس تعتلي رعشتي وارتجافي، أشعر بحاجة ملحّة للهرب من هول المشهد، ها أنا ارتمي وسط موجة من هذيان كجثة هامدة وسط أسمالي المبتلّة بالرعب. سلالم من عويل تدثّر بقاياي المرمية على أسفلت الطريق، ألملم أشلائي فزعاً أبحث عن طرفي، أزحف خلف بعض أناملي، أتمرّغ في دمي المسفوح على أطراف الرصيف، تتلمظ عاهاتي وسط صراخ يصرعني عند طرف شجرة يابسة اتخذت شكل صندوق من خشب، مليء بديدان غريبة، بدأت تترك آثارها على جسدي المختنق بروائح كريهة. ما كان مني إلّا أن أستعين بموسيقى جنائزية تنبثق من صدى زوبعة أدعية وتكبير، لا أشك في الأمر أنّه ذات التكبير البارع ببعثرة ضوء فانوسي الشحيح على بلاط سكون ليلتي، ولّما تجف أحلامي بعد. ألعق الفراغ المتّشح بالأهوال، أختزن المجهول في قراطيس صغاري الذين لم أمنحهم وداعاً، استعجل دموعي الهاطلة على ضفة وديعة مرصّعة بالنسيان، كلّ

شيء هجرني، أمسيت مطويّاً تحت رداء وحدتي، مركوناً في جحيم الانتظار، بعيداً عن العالم الخارجي، أتوضأ بكوابيس مفعمة بالفزع، أشمّ رائحة أهازيج ذات خريف، يحملني قرباناً لآلهة مقنّعة بالتجهم، تتلو سيرة كفري، تطقطق بعبث متسوّل يتهدّج بالهرج، لم أجد حولي إلّا سيلاً من الأسئلة تنهال عليّ، تنصب لي شراكاً خارج حدود الزمان والمكان. كنت أغوص في لوثة جنون، وأجيب على أسئلة مخيفة بصوت مبحوح، وقبل أن يمسّ صراخي عقارب الساعة المحتضرة عند الثالثة بعد منتصف الفزع، كنت قد بلغت أطراف نافذة الجنون، إلّا أنّ وقع الأقدام خلف الباب تأتي مرة أخرى وسط جلبة، تتأمل سخف الهذيان على جبيني المندسّ بين يدي؛ لأصحو على مواء قطة يعبث ذيلها بوجهي، تمنحني بعض الدفء، أبتسم لها أمسح على رأسها، تندسّ بهدوء شديد تحت غطائي.

obeikandl.com

obeikandl.com

13

ذات الأثر

منذ عام، وحيدةً تجلس على شرفة الوجع، تتأمل حالها، محدّقة بالرصيف؛ لعله يأتي. الموعد يقترب، الغياب المبكر يتناسل عتمةً وألماً، تؤمان لا ينفكان أنْ يغادرا رصيفَ المبكى، ظلّه وعيناها. الرصيف يعانق دموعَها المنحدرة فوق خدّ الأسى، يحمل أنفاس زوج، تقاسمت أشلاءه شظايا عبوة عمياء؛ ليغادر مكانه مثخَناً بجراح الوداع الأخير، مشيّعاً بدعوات العابرين. تعانق أم حسين كلّ ليلة صدى صوته، تتدثّر بعباءة المكانِ الذي عشقه لخدمة العابرين إلى النور دون خوف، غادرها محرّراً نفسه من أعباء الخنادق. تقطع صمت الوحشة وحدها، تجفّف دمع عينيها بأحلام موؤدة. امرأة صامتة تضرب الفاقةَ بعصا الهمَّة، لا تستكين إلّا لهدوء الليل، عطشى لتلكَ الصور الجميلة، صور هي أقرب من الليل ذاته، تتعثّر ببقايا عطره، ترتجف يداها عند ملامسة خزانة ملابسه، تهيم مع

الذكرى، فتطفو فوق دخان همسه، يهزّها الفجر؛ فتصحو على صمتها، تترك ذكرياتها على حافة سرير بائس، وتمضي ليوم جديد، تجنّد كبرياءها، تداعب أبناءَها الصغار. كانت تتعذّب بقدر حبّها لهم، تفترس دروب الوحشة، ترسم لهم أملاً تنبثق من تحتهِ الحياة. حصون الفقر تحاصرها من كلّ مكان، الفقر يرتدي ملامح الموت، يرعبها كلّ يوم، تأخذها موجة حيرة واضطراب عبر فوضى الزمن، زمن فقد ملامحَ الماضي الجميل. كانت تبحث وسط ظلام المدينة عن قلب يهبط بها لوناً حاراً يكمل بها لوحةَ الرصيف المبعثرة فوقَ ثنايا الروح؛ لعلّها تعيد خيمة الضيافة لسابق عهدها، لكن دون جدوى، تمتلئ فراغات يومها بالألم، فتغادر يومها، تعانق حلكة الليالي، بعدما يهبط النوم فوق جفون أبنائها. تتوغل في صخب غربتِها دون نصير، تلهث الطرق من وقع خطواتها التائهة في فضاء المجهولِ، يفوح المكان بكلماته الطيبة، ولأنّها لا تملك غير الذكرى، راحت تقلّب صفحاتها بهدوء، تنقشع أمامها سحب الليل، تلتحف أيامَه وتغرق في حضنه الدافئ، حتى يدركها الفجر. مازالت كلماته تهتف بها عشقاً للطقوس الجميلة:

– كلّ شيء يأفل إلّا خدمة الزائرين.

داهمها اليأس بقوة، تطلق صيحات الوجع، تتشبّث بخيوط غزلتها الدعوات، إلّا أنّ اليأس تفجّر لتصبح ضحية يغلّفها الأسى؛ فتمرّ باكية آخر أحلامها. ليل جديد يتّخذ زينته، لكنّها تجافيه، الحسرات تغزو أنفاسها، صدى مواكب الزائرين يخترق سمعها، مآتم الأحزان غزت الطرقات، البيوت امتلأت بالطعام والشراب، الناس تعدّ كلَّ شيء لخدمة الزوار العابرين، ترجلت من صهوة دموعها كي تتفقد أبناءها الثلاث،

دفنت نفسها تحت غطاء الحزن، مغادرة الذكرى. في صبيحة أوّل أيام الحزن الذي انتظرته بلهفة، غادرت صمتها بمرارة، غارقة بحزنها، تنظر إلى مكان زوجها الصامت، العتمة تمتدّ بقدر مساحة الماضي، تثير غبار نداءاتِ الزوج الغائب، وحين هبّت رائحة الخطى، لم ترَ غير بقايا جرح متّشح بالعتاب، أدركت أنّ زوجها لن يعود، أوصدت باب غرفتها، زلزلت عرش الدموع؛ لتقيم العزاء وحدَها، إلّا أنّ ابنَها البكر، قرعَ باب الفجر بهمة أبيه بعدما رأى الحزن يلتهم ما تبقى من أمّه الحنونة، عمد إلى أن يحمل الأمر على كاهله، لبس طاقيته السوداء، تحزّم بحبل الرجولة، اصطحب أخوه حاملاً راية خضراء، غرزها في المكان نفسه، أخته تجري خلفهما، تتعثّر بخطواتها، أخذ يسقي العابرين ماءً، صوته الوديع يحلّق في الأفق:

– هلا بزوار أبي عبدِالله ...

هكذا كان أبوه يستقبل الزائرين. أمّه الغارقة في حزنها تستفيق على الصوت الآتي من المكان نفسه:

– إنّه صوت الغائب، صوت أبي حسين...

تقفز من مكانها مذعورة، تطلّ بوجهها من خلف النافذةِ، تحدّق بالمكان، أبناؤها الصغار يقتحمون أفواج العابرين نحو النور، تجهش بالبكاء، تلتَفّ بعباءتها، تقتفي أثرهم.

obeikandl.com

14

2/1 وطن

مذ عرفته كان ملاذاً لصمتي، ألوذ بمعطفه في ليالي الخوفِ الباردة بحثاً عن دفء، فيلوذ بعينيّ الهامعتين أملاً يرمّم بقاياه، كمن يبحث في الظلام عن نور ملامحي المبعثرة على مشارف جراحه؛ لعلّه يعبر تلك الهوّة السحيقة بكبريائهِ، عبر كلّ المدن الرافضة لوجودنا يبحث عن وطن، ناعياً أطيافه الجميلة الغافية على أكتاف الهور. كان وحيداً وسط القبيلة المُدجّجة بالأوهام، الخانقة لكلّ أحلامه، أحلام مبلّلة بالعدم، يصاهر نهنهات مكتومة، يتصحّر البوح على أطلال الذكريات المرّة؛ القرية التي خذلته تبدو ميتة، ترك كلّ شيء وراءه، ابتلعته المدينة بلا خطيئة، هجرة من وجع إلى وجع، و من غربة إلى منافي غربة جديدة. أسدل ستائر فرط المذلّة، غفر كلّ خطايا القبيلة إلّا واحدة، ظلّت طي الكتمان، أطلق كلّ ما يملك من قوة باتجاه الحياة، الموغلة بانعطافات الفقر والأقدار، ظامئاً لفتح الأبواب الموصدة أمامه، حالماً بأسرة تمنحه رائحة أشجاره التي غادرها بلا وداع، وظلال مدرسته الطينية، أسرة لا تنتمي إلّا إليه .

كان جميلاً، فارع الطول، ملامح وجهه تعكس كبرياءه وهيبته، يصطاد الفرح لنا ولو كان في أعماق بعيدة، بيد أنّه كان محمولاً على سفر دائم، مفتوناً بالمسافات التي هجرها، أدرك كلّ تفاصيل الوحدة ووحشة الطرق التي مرّ بها، يحمل إرث أوجاع المدن اللائذة بظلال الجفاء، يتّقدُ عشقاً وتحدياً، حين يتشرنق الجفاء بكامل عدائه:

- إنْ لم تكن رجلاً فأنّك لا تساوي جناحَ بعوضة .

وبين خرائب السنين الممتدّة عبر عقود عمره الخمسة الغافية على أعتاب الضيم، بدأ يستعيد بعضاً من أشيائه الغائبة، كنت قربه، يحوم قلبي حول أطلال تذكّرهِ، أرسم ملامح سيره، تنتابني رغبة لتتبع خطواته، يهجس:

- يا ملاذَ دفئي، أنت لم تكن وحيداً مثلي، فلا يمكن أن تكون حياتك مثل حياتي .

لا أتذكر أنّي نظرت في عينيه خجلاً منه ومهابة من جمال روحه، لكنّي هذه المرّة لا أدري لِمَ استغرقتُ في التحديق فيهما؟، أصابتني الدهشة لمّا رأيتهما تتسعان لكلّ أوجاع المدن الخربة، المحفوفة بمسيرة الجدب والخواء، وما أدهشني أكثر التياع فؤاده، كان محضّ شباب، يرقد بين جنبيه عشقٌ لامرأةٍ مجهولة:

- يمكنني أن أغفرَ لكلّ الذين أساءوا إليّ إلّا (....) ابن الكلب....

حاولت أن أخفي ابتسامتي دون جدوى، أبي تجاوز عتبة الخمسين من عمره، ومازال يذكر ملامح حبّه ، تساءلتُ،

" كيف لمثل أبي يحتضن حرائق قلبه، وقد أرهقته السنون بجفائها؟ "

- اهدأ يا أبي، يبدو أنك تحبّها ، فهل كانت جميلة مثل أمّي ؟

-أمّك طيبة، حملت وِزرَ صبري وآلامي؛ بني، اعلم جيداً أنّ المرأة الأولى في حياتك لا يمكن أن تنساها أبداً، هذا قدر قلوبنا؛ كانت أجمل نساء القرية، عطّرتْ أنفاسي بجدائلها، أزهرت كلّ حقولي بنور طلّتها، عانقتْ دفئي بلهفةٍ ساخنة.. هي مثل قطعة حرير تمشي بين ذراعي، ولّما أوشكت أن تثمر، أحسست بقوة حقد مستفزّة تفصلها عني.. انتفضتُ:

- أنا زوجها. أجابني (ابن الـ...) ساخراً، ملّوحاً بقوته، متّكئاً على عادات بالية :

- ولكنّي أبوها!.

- أعطني سبباً واحداً.

- هذه رغبتي، و لا يمكن أن تكون برفقتك.

هكذا خسرت كلّ شيء بعدها. أنا رحت أحرث غير أرضي، هي ودعت حياتها بعد سنين من اللوعة والسقم. ترجّلَ عن صهوة أطلاله المنسية بشهقة لم يسمعها أحدٌ غيري، لاذَ بصمت محير، منغمساً بحمّى الحنين لطرف نهره العذب. ما زال يمضي وحيداً بين مدن تتناسل موتاً، لا تقدم لهم الحياة شيئاً غير الفقر والخراب والمرض والعدم وأحلام مرعبة، يبحث عن بقايا وطن؛ علّه يغادر وحشته الشاهقة بالقلق . قلت له ذات مرة، لّما أنشبت الغربة أنيابها المذّلة في جسد الأمل:

- نحنُ وطنك وغيرنا وهم، مجرد خرافة شائعة تعذب سير خطواتنا، أيُّ وطنٍ! لم يمنحنا لحظة دفء، ونحن نغفو فوق بحيرات من النفط، أيّ وطنٍ مترع بالحروب والمجاعات والأنين...

- لا يا بني، ليس أكذوبة، يبدو للوهلة الأولى وأنت تصارع الضيم والقهر، وتهزمك جنود الغربة أنّه عدم، تعلّم منّي، نحن من يصنع الوطن.

وقبل أن يطرّز حضوري بآخر كلماته، و تحطَّ نوارس الموت فوق جبينه، كانت جيوش من الأسئلة تتقاتل من أجل حقيقة وجودنا، غردّ بابتسامةِ وداع :

– أنتم نصف الوطن، و....؛ وبموته اندلعت مسيرة خريف آخر؛ حملتُ أوزارَهُ وأوزاري لأبحثَ عن نصفهِ المفقود.

obeikandl.com

15

آخر المحطّات

بعد عناء طويل، أقتطف تذكرة السفر فرحاً، أحزم حقائب شوقي لامرأة لم أرها من قبل، أحتمي بأحلام اليقظة، تسابقني الخطوات، أشاكس ضوءاً مندلقاً من بين ثنايا العتمة، يتلو بعض انتظاري:

- متى يأتي القطار؟.

- سيأتي عن قريب.

كانت عيناي معلّقتين بعقارب الساعة، منتظراً قدومه، وسط ضجيج المسافرين، يخالني آخيت متاهات الدروب، مذ أتيت هنا، متخبطاً أسير على ذات الدرب، خطوة خطوة. فجأة تراني أتطهّر بدمي عند لحظة غياب، أتبعثر معتّقاً بالندم، تائهاً في محطة يلفّها العويل ودخان كثيف ورائحة شواء، قابع فيها صراخ ودوي زلزال عنيف، قدماي تطويان أرصفة الذعر، ذراعاي معلّقتان في فضاء مغلق، أبحث عن نافذة، أتنفس جحيم احتراقي، ظلّي يهرب إلى جهة قصية، أهرول إلى منعطف التذكّر، أنشد

حكاية قديمة، تبوح بجرح ما زال فاغراً فاه؛ لعلّي أرتّب ما تبقّى من ثياب الأماني، أعبر ضفة المحطة، أقتفي أثري، عيناي تخطّان حلماً يعزف تراتيل الأمس، أمضي على عجل صوب البدايات، كان الفجر يتنفس براءتي؛ وأنا أحبو بين بساتين النخيل، مرايا (نهير الليل) تداعب خيالي، أخلع قماطي، أرتدي ماءه، أبحث عن سرّ وجودي. خالي الذي رأيته في أول المحطات، عند طرف قريتنا البائسة، يهتف بالجموع أملاً، دثّرني بهمسه:

– أراك تتبع خطى الحرائق، عد إلى قريتك فما زال الوقت باكراً.

آنسته وهجاً في حلكة الليالي، ألوذ بكلماته زهواً، مرتدياً ظلّ خطواته، وأمضي منتشياً بعبقي السومري، أحطّ الرحال على ضفاف السواقي، وتراب الحقول، خضرة وماء، طيور البط والخضيري وأم سكة، حكايات تنبلج منها رائحة التبغ ورنين دلّة القهوة، كانت أنفاسي تدغدغ سعف النخيل، تشدو غناءً بقصائد السياب، فرحاً أغازل شناشيل ابنت الجلبي، أهطل حبوراً على شط العرب، أنزف مطراً. وحين أزهرت الأرض جفافاً في غفلة منّا، انتصبت الأحزان جسراً يحملني إلى المدن البعيدة، غريباً أهبط هناك، خلف السدة الترابية، شرق العتمة، والقلب يخفق شوقاً لظلّ شجيرات الحناء، لظلّ أبي، ودثار أمي. كانت المدن رقعة شطرنج بلا ملوك، وكنّا بيادق لا لون لها، تحركنا أيد خفية، نسقط بين قلعة وفيل، تسحقنا سنابك الخيل، نطعن من أمام ومن خلف، امتنعنا عن اللعب، ولم نتحرك فوقها؛ فكانت المنافي رقعتنا، وزنازين المواجع تأسر صوتنا. أوقدوا لنا نار الحروب، لم تكن برداً وسلاماً، كانت جحيماً وخراباً، لثمنا ضرع الموت وسنوات التيه، نلهث خلف أحلام من سراب، أحلام بعرض السموات والأرض، نهذي بملامح تحلم بالفناء؛ فتعمّ الظلمة، ولم نسمع

آذاناً للفجر... هكذا تولج محطة قلب أخرى. أصلب على أعواد الدهشة، أتساءل،

" لماذا يتّشح القلب بالشوق والحنين لتلك المحطات؟ ولماذا تنتصب الآن أمامي؟. إنّه لأمر عجيب، من أيقظ رقاد السنين؟ "

أنفاسي تتوقف عند نداء ينطلق من أقصى المحطة،

"جاء القطار".

المسافرون لملموا حقائبهم، عيناي تعانقان ظلّ شبحين يهبطان من علو، يرتديان ثياباً من ضباب ناصع البياض، تلفّني موجة هلع، أرتبك، أرتجف رعباً، أبحث عن منفذ، ولو ثقب إبرة، أضلاعي تطأها أقدام المسافرين، أحاول أن أتحسّس ساقيّ؛ كي أطلقهما تسابقان الريح، يصيبني الذعر، كنت بلا ذراعين، عيناي تحدّقان بي عن بعد، تغرقان في موجة دمع، يداي تلوحان لي بالوداع، المحطة بكامل ضجيجها تأفل في هباء الخطى، الأحلام، المحطات، تتهاوى، تتساقط، يصمت كلُّ شيء أمامي. لم يكن أمامي غير أن أتدثّر بآخر أنفاسي، تاركاً أشلائي وصرة أسفاري على رصيف مكتظّ بالنواح. ابتسمت لعقارب الساعة المعلّقة على بوابة المحطة...كان الموت صحواً.

obeikandl.com

الفهرست

الموضوع	الصفحة
١ – ولادة	٧
٢ –كوميديا العالم السفلي	١١
٣–سروال داخلي	١٧
٤ – المعبر	٢٣
٥ – غبار القصائد	٢٩
٦ – الكمبارس	٣٣
٧– رقصة فزع	٣٧
٨– قرابين البحر	٤١
٩– امرأة القمر	٤٥
١٠ – أهلا بك ... ننتظرك في بغداد	٥١
١١ – ١٧٠٠	٥٩

obeikandl.com

الموضوع	الصفحة
١٢- في قباء الكوابيس	٦٣
١٣- ذات الأثر	٦٧
١٤-1 / 2 وطن	٧١
١٥- آخر المحطات	٧٥

obeikandl.com